قصة موسى وفرعون

في ضوء آيات القرآن الكريم

(أحداث ووقائع-دروس وعبر)

بقلم

د. عبد الرحمن محمد علي عويس

أستاذ التفسير المساعد بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه فإنه من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ونصلي ونسلم على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وعلى آله وصحبه وسلم وبعد:

فإن المتأمل في كتاب الله تعالى والباحث في تاريخ البشرية من خلال آيات القرآن يجد بأن تأريخ القرآن لحياة نبي الله موسى قد جاء في سور كثيرة من كتاب الله تعالى، ويعتبر تاريخ هذا النبي وسيرته مع فرعون وبني إسرائيل هو أكثر الأحداث ذكراً وتفصيلاً في كتاب الله سبحانه، وذلك لما لهذا النبي من شأن في تاريخ البشرية في الفترة بين حياة نبي الله إبراهيم وبين رسول الله محمد عليهم جميعاً أفضل الصلوات وأتم التسليم.

وأيضاً لما بين بني إسرائيل والمسلمين من صراعات ومواجهات بدأت منذ هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى المدينة، ولم تنته إلى يومنا هذا، وستظل باقية حتى قيام الساعة[١].

ولذلك وقع اختياري على هذا الموضوع لنحاول أن نحيا في رحابه، وان نعيش في ظلاله نستلهم منه العبرة ونأخذ منه العظة والدرس، وكان اعتمادي بالدرجة الأولى على الأحداث التي جاءت في كتاب الله تعالى نحاول فهمها والعيش في رحابها، بعيداً

---

(١) تحقيقاً لقول الله سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء:٨]. ولقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ("لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود. فيقتلهم المسلمون. حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر. فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبدالله! هذا يهودي خلفي. فتعال فاقتله. إلا الغرقد. فإنه من شجر اليهود".) مسلم. كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب اقتران الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج.

عن الإسرائيليات والأخبار غير الموثقة. فليس الهدف من هذا البحث مجرد سرد الأحداث والوقائع وإنما الهدف منه محاولة فهم هذه الأحداث واستخلاص العبرة منها، وحتى نُبَصِرِ من حولنا بمصارع الغابرين وأسباب نقمة الله عليهم، فلا نقع فيما وقعوا فيه.

وعند الحديث عنها يمكن تقسيمه إلى مباحث تعتبر فصولاً نوجزها في النقاط التالية:

الفصل الأول: وفيه الحديث عن السيرة الذاتية لنبي الله موسى عن مولده ونشأته وشبابه وزواجه إلى أن قضى الأجل مع صهره وعاد إلى مصر مرة أخرى.

الفصل الثاني: ويبدأ الحديث فيه عن لحظات المناجاة بين موسى وربه وتكليفه بالرسالة وأن يأتي فرعون ليخلص بني إسرائيل من بطشه.

الفصل الثالث: وفيه الحديث عن لحظات المواجهة بين موسى وفرعون وينتهي بقول الملأ لفرعون أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين.

الفصل الرابع: وفيه حديث عن المواجهة بين موسى وسحرة فرعون وما دار بينهما من معارك انتهت بإيمان السحرة.

الفصل الخامس: ما بعد عصر السحرة وينتهي بهلاك فرعون.

هذه النقاط نفصل أمرها في الصفحات التالية:

الفصل الأول: ميلاد نبي الله موسى ونشأته

إن الناظر في كتاب الله تعالى والمتأمل في سوره وآياته يجد أن هناك سوراً كثيرة قد تناولت حياة نبي الله موسى وعند النظر والتأمل في تلكم السور التي ذكرت جوانب من تاريخ هذا النبي يري بأن كل سورة منها تحمل طابعاً خاصاً بها، وتتناول الحدث من زاوية تختلف عما ورد ذكره في السور الأخرى وذلك على حسب سياق آيات السورة بوجه عام وما تعالجه من قضايا، فتجد سورة تلقي لنا الضوء على حياة نبي الله موسى قبل بعثته، وأخرى تركز على لحظات المواجهة بين موسى وفرعون، وثالثة يكون الحديث فيها عما لاقاه نبي الله موسى من بني إسرائيل بعد الخروج من مصر وهكذا. نجد هذه السور تهتم بمعالجة جانب بعينه وتركز الحديث عنه ولكنها في الوقت ذاته لا تغفل ذكر الجوانب الأخرى وإنما تذكر منها ما يتناسب وهدف السورة الرئيس.

ولذا فلو أنك أردت أن نتعرف على حياة نبي الله موسى منذ أن ولد وإلى أن أرسل إليه، فستجد تأريخاً مفصلاً لهذه الفترة من حياته في سورة واحدة من كتاب الله تعالى، ألا وهي سورة القصص، فإن الحديث فيها ينصب بالدرجة الأولى حول السيرة الذاتية لنبي الله موسى، فلقد ذكرت فيها حلقات من حياة هذا النبي لم تذكر في موضع آخر من كتاب الله تعالى -اللهم إلا تلك الآيات التي أشارت إلى ذلك في سورة طه- فلقد تحدثت عن مولد هذا النبي، والظروف التي صاحبت مولده،وحياة نبي الله موسى في قصر فرعون، وخروج موسى إلى أرض مدين، وزواجه من ابنة الرجل الصالح، فهذا الجانب من حياة هذا النبي لم تأت له إشارة في سور أخرى من القرآن الكريم سوى تلك التي جاءت في سورة طه كما ذكرنا آنفاً، وهي تذكر نبي الله موسى بجانب من نعم ربه عليه، كان من بينها هذه النعم حيث يقول فيها الحق سبحانه:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ

وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه:٣٨-٤٠].

ولقد جاء الحديث في سورة طه في فترة متأخرة نسبياً من حياة هذا النبي وجاء الحديث في هذه السورة في سياق النعم التي أنعم بها المولى –سبحانه– على نبيه موسى وكان من بينها ما أنعم به ربه عليه وهو طفل رضيع في المهد، وجاء الخبر في سورة طه على صورة نبأ موجز للأحداث التي جاء الحديث عنها مفصلاً في سورة القصص، والجديد الذي أضافته للأحداث أمران لم يأت لهما ذكر في أحداث سورة القصص ألا وهما:

١- ألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني.

٢- قتلت نفساً فنجيناك من الغم.

وتفردت سورة القصص بجوانب أخرى من الأحداث، وتم عرض الأحداث فيها على صورة حلقات متتالية في حياة هذا النبي، وجاء عرض الأحداث فيها على النحو التالي:

(مقدمة للأحداث تعرضت بوصف تفصيلي للواقع والعصر والأحوال الاجتماعية والسياسية التي ولد فيها نبي الله موسى.

– حلقة مولد موسى –عليه السلام– وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته.

– حلقة شبابه وفتوته وما آتاه الله من الحكم والعلم، وما وقع فيها من قتل القبطي، وتآمر فرعون وملئه عليه، وهروبه من مصر إلى أرض مدين، وزواجه فيها، وقضاء سنوات الخدمة بها.

– حلقة النداء والتكليف بالرسالة. ثم مواجهة فرعون وملئه وتكذيبهم لموسى

وهارون. والعاقبة الأخيرة – الغرق – مختصرة سريعة. "(١).

هذا عرض موجز للأحداث التي وقعت في هذه الفترة من حياة هذا النبي نفصل الحديث عنه في الصفحات التالية وبيان ذلك من خلال ما ورد في سورة القصص:

الحلقة الأولى: ميلاد نبي الله موسى

﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الآيات:١-٣].

هذه مقدمة السورة للحديث عن نبأ نبي الله موسى وفرعون، ولقد جاءت بداية السورة على هذا النحو لتؤكد بأن هذا الخبر المتلو هنا متلو بالحق فلا كذب فيه ولا شك ولا جدال، ومخاطب به المؤمنون خاصة فهم المعنيون بمثل هذا الخطاب وهم المكلفون به كذلك.

وبعد هذه المقدمة بدأت السورة بوصف للظروف والملابسات التي ولد فيها نبي الله موسى فكان الأمر كما قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٤-٦].

لقد جاءت هذه الآيات بمثابة مقدمة وتوطئة للحديث عن حياة نبي الله موسى –عليه السلام– حيث بينت بأنه في مثل هذه الظروف ولد هذا النبي، فلقد طغي فرعون وبغى وعاث في الأرض فساداً، وكان الأمر كما قال صاحب الظلال:

(وهكذا يرسم المسرح الذي تجري فيه الحوادث، وتتكشف اليد التي تجريها. وتتكشف معها الغاية التي تتوخاها. وانكشاف هذه اليد، وبروزها سافرة بلا ستار منذ

---

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب ٥/٢٦٧٧ ط دار الشروق.

اللحظة الأولى مقصود في سياق القصة كلها، متمش مع أبرز هدف لها. ومن ثم تبدأ القصة هذا البدء. وذلك من بدائع الأداء في هذا الكتاب العجيب.

ولا يعرف على وجه التحديد من هو الفرعون[1] الذي تجري حوادث القصة في عهده، فالتحديد التاريخي ليس هدفاً من أهداف القصة القرآنية، ولا يزيد في دلالتها شيئاً. ويكفي أن نعلم أن هذا كان بعد زمان يوسف – عليه السلام – الذي استقدم أباه وإخوته. وأبوه يعقوب هو "إسرائيل" وهؤلاء كانوا ذريته. وقد تكاثروا في مصر وأصبحوا شعبا كبيرا.

فلما كان ذلك الفرعون الطاغية (علا في الأرض)وتكبر وتجبر، وجعل أهل مصر شيعاً، سخر كل طائفة في شأن من شئونه. ووقع أشد الاضطهاد والبغي على بني إسرائيل، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه، فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب، ومهما يكن قد وقع في عقيدتهم من فساد وانحراف، فقد بقي لها أصل الاعتقاد بإله واحد، وإنكار ألوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعا.

وكذلك أحس الطاغية أن هناك خطراً على عرشه وملكه من وجود هذه الطائفة في مصر، ولم يكن يستطيع أن يطردهم منها، وهم جماعة كبيرة أصبحت تعد بمئات الألوف، فقد يصبحون إلباً عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين الفراعنة الحروب، فابتكر عندئذ طريقة جهنمية خبيثة للقضاء على الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة التي لا تعبده ولا تعتقد بألوهيته تلك هي تسخيرهم في الشاق الخطر من الأعمال، واستذلالهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب. وبعد ذلك كله تذبيح الذكور من أطفالهم عند ولادتهم، واستبقاء الإناث كي لا يتكاثر عدد الرجال فيهم. وبذلك تضعف قوتهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث، فوق ما يصبه عليهم من نكال وعذاب. وروي أنه وكل بالحوامل من نسائهم قوابل مولدات يخبرنه بمواليد بني إسرائيل، ليبادر

---

(١) الفرعون: لقب حاكم مصر القديمة كالرئيس والملك والأمير والسلطان والإمبراطور.

بذبح الذكور فور ولادتهم حسب خطته الجهنمية الخبيثة، التي لا تستشعر رحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة[1].

هذه هي الظروف التي تجري فيها قصة موسى – عليه السلام – عند ولادته، كما وردت في هذه السورة.

ولقد بينت الآيات خطة فرعون في السيطرة على مقاليد الحكم في مصر، وبينت بأن فرعون من أجل تحقيق ذلك اتبع سياسة وضحت الآيات ملامحها:

-فهو قد علا في الأرض بكل ما تحمله كلمة العلو من معنى الكبر والطغيان والبغي والعدوان.

– جعل أهلها شيعاً: فرّق شعب مصر فرقاً وأحزاباً متناحرة اتبع في حكمه لمصر سياسة منكرة سياسة: (فَرِّق تَسُد).

– استضعف طائفة من هذا الشعب وهم بنو إسرائيل،فلقد كانوا على دين غير دين القوم، فهم لا يؤمنون بعقيدة القوم القائمة على الوثنية، وتأليه الحكام،وإنما هم على دين إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وكان لهذا دور كبير في اضطهاد.هم وإذلالهم،ولم يمكنه القضاء عليهم قضاء مبرماً،فاتبع في سبيل القضاء عليهم سياسة تعرف في العصر الحديث بسياسة (تجفيف المنابع) وهي تقوم على ذبح الأطفال واستحياء النساء للخدمة في الأعمال الشاقة.

كانت هذه هي الحالة الاجتماعية والسياسية للعصر الذي ولد فيها هذا النبي، والأمر بهذا الوضع قد وصل فيه البغي والظلم إلى منتهاه، وما عاد فيه بصيص من أمل، ولكن قبل بيان السورة لبقية الأحداث يطمئن الحق سبحانه عباده المؤمنين، بأنه على الرغم من هذا البغي والظلم والجبروت من فرعون وملئه، ومن حرصهم على تنفيذ سياستهم هذه في أرض مصر، وظنهم بأن مشيئتهم هي الغالبة تبين الآيات بأن

---

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب ٢٦٧٦/٥ط. دار الشروق.

المشيئة الغالبة في هذا الأمر هي مشيئة الله سبحانه، فليخططوا وليدبروا وليكيدوا كما يشاءون ولكن الأمر في النهاية حسمته قدرة الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [الآيات:٥-٦].

لقد كانت غاية فرعون وملئه أن يظل مسيطراً على مقاليد الأمور فى مصر ومن أجل ذلك ذبح الأطفال واستحيا النساء، وهو يظن بأن مشيئته غالبة وأمره نافذ، ولا يدرى بأن هناك مشيئة فوق مشيئته وإرادة فوق إرادته ألا وهي إرادة الله سبحانه، ولذلك تفصح الآيات عنها، متحدية فرعون وملئه بأن احتياطهم وحذرهم لن يجديهم فتيلاً: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٤-٦].

قبل عرض السورة للأحداث تأتي هذه العبارة بمثابة جملة معترضة فى سياق عرض السورة للقصة وذلك لتبين بأن إرادة الله هي النافذة الماضية، وليست إرادة فرعون وملئه، ولتطمئن هؤلاء المستضعفين بأن الغلبة لهم، وأن لهم التمكين والملك، ولتبين أيضاً بأن الحق سبحانه سيري فرعون وملئه ما يحذره ويخافه من ذهاب ملكه على يد تلك الفئة التي كان يسومها سوء العذاب. فليعث فرعون في الأرض فساداً كما يشاء، فلا يغتر بذلك، وليتحمل بنوا إسرائيل صنوف العذاب وألوان البلاء فلا ييتئسوا ولا ييأسو فإن الأمور بعواقبها وخواتمها.

وبعد هذا الاعتراض تبدأ السورة فى عرض الأحداث: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية:٧].

في مثل هذا الظرف وُلِدَ نبي الله موسى،والخطر محيط به من كل جانب، وأم موسى شأنها مع صغيرها شأن كل أُم تخاف عليه من الأذى فى الظرف العادي فكيف

بظرف كهذا،إن رؤوس الأطفال تتطاير حولها من كل جانب، وولدها طفل من بني إسرائيل تلك الفئة التي يسومها فرعون سوء العذاب، فمن الممكن أن تصل إليه يد البطش والطغيان. هنا تتدخل يد القدرة الإلهية لتسير الأمور على وفق المشيئة الإلهية لا على وفق ما يريده فرعون وملؤه:

(أوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) بأي طريقة تم هذا الوحي بإلهام من الله، بنزول الملك لم تفصح الآيات عن ذلك، ولكنها أكدت بأن يد القدرة الإلهية تدخلت في تلكم اللحظة لإظهار جانب من قدرتها وقوتها فى مواجهة قوة وجبروت فرعون، أوحينا إليها أن أرضعيه طالما أحسست بالأمان فإذا ما أحسست بالخطر وخفت عليه من بطش فرعون فألقيه فى اليم: ألقيه في البحر، وطمأنها الحق سبحانه بقوله: (إنا رادوه إليك) بما تحمله هذه العبارة من معاني العظمة، فلا تخافي عليه الضيعة، والأكثر من هذا (وجاعلوه من المرسلين) إن الخبر ينزل على قلب أم موسى بردا وسلاماً فهذه هي البشرى من الله سبحانه ومن أصدق من الله قيلاً، ومن أصدق من الله حديثاً.

وتنفذ أم موسى هذا الأمر وتلقى بولدها فى اليم يفهم ذلك من سياق الآيات ويرفع الستار مرة أخرى على أمر لم يتوقعه أحد، ولم يخطر على بال بشر: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [آية:٨].

لقد حمل التيار موسى وألقى به بين يدي آل فرعون، وهذا آخر أمر تتوقعه أم موسى أن يقع وليدها في قبضة فرعون، ولكنه تدبير المولى سبحانه وتعالى، أن يتم الأمر على هذا النحو ويصل هذا المولود بنفسه إلى قصر فرعون، وأن يحمله التيار فيلقي به بين يدي آل فرعون فيلتقطونه، لماذا يلتقطونه؟ ليكون مصدراً لسعادتهم وسبباً لسرورهم كما هو الشأن حينما يلتقط الناس طفلاً لقيطاً يدخل البهجة والفرحة والسرور على قلوبهم، ليس هذا وإنما كما قضى المولى سبحانه وقدّر (ليكون لهم عدواً وحزناً) إن هذا المولود سيكون عدواً لآل فرعون جميعاً، وسيدخل الحزن والغم إلى قلوب آل فرعون جميعاً جزاء وفاقاً لما اقترفته أيديهم في شأن بني إسرائيل فالجزاء من جنس

العمل. فكما أن فرعون وملأه قد أدخلوا الحزن على كثير من بيوت بني إسرائيل فسيكون هذا المولود سبباً في إدخال الحزن على بيوت الكثير من آل فرعون.

(إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) تختم الآية بهذا التذييل لتبين بأنهم جميعاً ما كانوا على صواب فرعون وهو يمثل رأس النظام وهامان وهو يمثل الوزراء والطبقة المقربة من فرعون وجنودهما وهي القاعدة التي يرتكز عليها هذا النظام فهي الحامية له والمنفذة لتعاليمه وتوجيهاته، هؤلاء جميعاً ما كانوا على صواب وإنما كانوا خاطئين، كانوا خاطئين في كل شئ، في انحرافهم العقدي حينما كفروا بالله -سبحانه- خاطئين في اتباعهم تلك السياسية الغاشمة التي تقوم على البغي والظلم والعدوان خاطئين في سوء تقديرهم للأمور، خاطئين في معالجتهم للموقف بهذه الصورة المنكرة، فبدلاً من أن يعملوا على اجتثاث أسباب البغي والظلم من المجتمع بدلاً من ذلك ازدادوا طغياناً فقتلوا الأبرياء وروعوا الآمنين.

وبهذا ينتهي هذا المشهد من مشاهد تلك الحلقة في حياة هذا النبي وقد التقطه آل فرعون ترى ما الذي حدث له بعد ذلك بعد أن التقطه آل فرعون هذا ما تصوره الآيات بعد ذلك وهي ترسم المشهد التالى لما آل إليه أمر موسى: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [الآية:٩].

لقد تلقفت يد الطاغية الطفل الرضيع هذا وسياق الآيات ينبئ بأن القوم قد توجسوا خيفة منه، وأنهم قد هموا بقتله لولا أن امرأة فرعون قد استنقذته من بين أيديهم واستعطفت فرعون في استبقائه وتبنيه، وأن تتخذه ولداً فوافق فرعون على ذلك وأعطاها ما تريد، كيف وقع هذا كيف رق قلب فرعون إلى هذه الدرجة فيوافق على أن يستبقي طفلاً غريبًا في قصره فضلاً عن تبنيه واتخاذه ولداً وهو طاغية عصره وجبار زمانه كيف وافق على مثل هذا ؟

إن الإجابة عن مثل هذه التساؤلات نجدها في قول الله سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ

مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩] إنها عناية المولى سبحانه هي التي كلئت هذا الصغير في مهده فلم تقدر يد الطاغية أن تمسه بأذى أو تنال منه مكروهاً. هذا من جانب ومن جانب آخر ألقى الله المحبة على موسى عليه السلام فلا يراه واحد من الناس إلا وأحبه وعطف عليه فكانت المحبة هذه الحصن الرباني الذي حفظ الله به موسى من بطش فرعون ومن جبروت فرعون، وكان المدخل إلى ذلك قلب امرأة فرعون هي التي بدأت بهذا الأمر فقالت لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، وسياق الآيات ينبئ أنهم قد وافقوا على هذا الأمر، فاستبقوا هذا الرضيع تحقيقاً لرغبة سيدة القصر امرأة فرعون وهم لا يشعرون بما تخبئه الأقدار من أمر هذا المولود شيئاً.

ويقف المشهد عند هذا الحد فموسى قد صار في حجر فرعون واستقر به المقام في قصره ولكن ماذا عن أمه التي ولدته كيف حال الأم وقد ألقته بيدها في اليم ماذا صنعت بعد فراقه هذا ما يصوره المشهد التالى حيث يقول سبحانه:﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الآية:١٠].

لقد ألقت أم موسى بولدها بيدها في اليم، وبعد أن فقدته صار قلبها فارغاً من كل شيء إلا من التفكير في أمر ولدها هذا، وكأنها سألت نفسها؟ كيف أمنت على فلذة كبدي أن أقذف به في اليم ؟ كيف فعلت ما لم تفعله أم من قبل ؟ كيف طلبت له السلامة في هذه المخافة ؟ وكيف استسلمت لذلك الهاتف الغريب ؟

والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية: (فارغا).. لا عقل فيه ولا وعي ولا قدرة على نظر أو تصريف!.

(إن كادت لتبدي به).. وتذيع أمرها في الناس، وتهتف كالمجنونة: أنا أضعته. أضعت طفلي. أنا ألقيت به في اليم اتباعا لهاتف غريب ! (لولا أن ربطنا على قلبها).. وشددنا عليه وثبتناها، وأمسكنا بها من الهيام والشرود وطمأناها (لتكون من المؤمنين).. المؤمنين بوعد الله، الصابرين على ابتلائه، السائرين على هداه.

ولم تسكت أم موسى عن البحث والمحاولة ! وإنما كلفت من يتتبع خطى ولدها ويقتف أثره ليأتيها بخبر ويطمئنها على وضعه فلم تجد أصلح لهذه المهمة من أخته فكلفتها بذلك (وقالت لأخته: قصيه).. اتبعي أثره، واعرفي خبره، إن كان حياً، أو أكلته دواب البحر أو وحوش البر.. أو أين مقره ومرساه ؟ وذهبت أخته تقص أثره في حذر وخفية، وتتلمس خبره في الطرق والأسواق. فإذا بها تعرف أين ساقته القدرة التي ترعاه، وتبصر به عن بُعد في أيدي خدم فرعون يبحثون له عن ثدي للرضاع: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ* وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ؟﴾ [القصص:١١-١٢]..

إن القدرة التي ترعاه تدبر أمره، وتكيد به لفرعون وآله، فتجعلهم يلتقطونه، وتجعلهم يحبونه، وتجعلهم يبحثون له عن ظئر ترضعه، وتحرم عليه المراضع، لتدعهم يحتارون به، وهو يرفض الثدي كلما عرضت عليه، وهم يخشون عليه الموت أو الذبول ! ويكفي صراخ طفل رضيع في بيت ليقلب حياة هذا البيت بكل ما فيه رأساً على عقب، ففي هذا الموقف العصيب بالنسبة لآل فرعون تبصر به أخته من بعيد، فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع، فتقول لهم: (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون)؟ وتسوق لهم الخبر على صورة تجعلهم لا يشكون في أمرها أو يظنون بأن لها صلة بهذا المولود (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) فيتلقفون كلماتها، وهم يستبشرون، يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب !

وينتهي المشهد الرابع، فنجدنا أمام المشهد الخامس والأخير في هذه الحلقة. وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة. معافى في بدنه، مرموقا في مكانته، يحميه فرعون، وترعاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله وهو قرير العين آمن مطمئن: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ* وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآيات:١٣-١٤].

هذا هو مشهد الختام في هذه الحلقة من حياة نبي الله موسى لقد عاد إلى صدر أمه مرة أخرى لتقر عين أمه بعودته، ولتوقن أن وعد الله لها بأن يعود إليها ولدها أنه وعد حق وأن الله قد حقق له ما وعدها به (إنا رادوه إليك) فعاد إليها مرة أخرى، لترضعه وترعاه وتضمه إلى صدرها، ولتقر عينها بذلك، ولكنه عاد إليها في هذه المرة لا على أنه ولدها الذي تخشى عليه من سطوة فرعون ومن جبروت فرعون، فهي تحاول إخفاءه بعيداً عن الأعين خوفاً عليه من الذبح، وإنما يعود إليها هذه المرة على أنه ولد فرعون وهي مرضعة له، وإذا كانت كل إمكانات فرعون موظفة للبحث عن أطفال بني إسرائيل الرضع لذبحهم والخلاص منهم، فهي من اليوم موظفة لحماية هذا المولود والقيام على أمره، وكيف لا والكل يعلم الآن بأن هذا المولود هو ابن فرعون الذي اختارته امرأته ليكون ابناً لهما وأقرها على هذا الأمر فرعون. ومن يجرؤ بعد اليوم أن يمس موسى بأذى، أو أن ينال منه مكروهاً، وهو في نظرهم جميعاً ابن لحاكمهم وربهم المزعوم.

أليس هذا من سخريات القدر بفرعون وملئه أن ينشأ عدوهم اللدود موسى في حمايتهم وبرعايتهم وفي كنفهم، لقد جاء ختام الآية مشعراً بذلك حيث قال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾. إنهم حقاً لا يعلمون ولو علموا حقيقة الأمر لكان لهم مع هذا المولود شأن آخر.

وبعد هذا المشهد تنتقل بنا الآيات إلى المرحلة الثانية في حياة هذا النبي ألا وهي مرحلة الشباب والفتوة، وتترك فجوة بين المرحلتين ليتصورها القارئ في ذهنه كيف كانت حياته فى قصر فرعون ؟ كيف كانت علاقته بأمه بعد ذلك ؟ كيف كانت حياته في قصر فرعون أسئلة كثيرة أغفلتها الآيات وتتركها لمخيلة القارئ يتصورها بذهنه، لتنقلنا الآيات بعد ذلك إلى المرحلة التالية من حياة هذا النبي فننتقل مع الآيات إليها ولكن بعد وقفة مع الدروس والعبر المستفادة:

دروس وعبر:

- ذكرنا من قبل بأن الحديث عن هذه الفترة من حياة نبي موسى جاء في

موضعين اثنين من كتاب الله تعالى في آيات هذه السورة وفي سورة طه ولقد جاء الحديث في سورة طه على هيئة حكاية لأحداث وتذكرة لنبي الله موسى بجانب مما أنعم به عليه ربه حيث يقول سبحانه:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ولا تحزن﴾ [طه:٣٨-٤٠].

وتوضح الآيات كأن الله سبحانه قد سخّر الجميع ليكون له دور في نجاة نبي الله موسى: اليم وهو البحر فلقد قام بدوره في حماية هذا المولود فلم تبتلعه أمواجه ولم يذهب مع الطوفان بل حافظ عليه اليم حتى ألقى به إلى الساحل، وكان لأخته دور كذلك وهي تتابع تحركات أخيها وتراقب أمره حتى أخبرتهم بنبأ الأم المرضعة لهذا الصغير وكأن الحق سبحانه قد سخر الكون كله لحماية هذا الوليد فلم يصب بأذى أو يناله مكروه.

– لقد اتخذ فرعون وملؤه كل التدابير والاحتياطات التي ظنوا بأنهم من خلال القيام بها يؤمنون بها ملكهم ويحافظون عليه من كيد بني إسرائيل،فهم لذلك يذبحون أبنائهم ويستحيون نساءهم، ظناً منهم أن ذلك يوفر لهم الأمن والأمان والاطمئنان،ويأتي قدر الله سبحانه ليسخر من كل هذه الاحتياطات، وليأتي لهم بالوليد الذي سيكون ذهاب ملك فرعون على يديه، وليدفع به ليربى في قصر فرعون وفي بيت فرعون، بل وفي حجر فرعون نفسه، إن موسى لم ينشأ بعيداً يخبئه أهله في قاع بئر أو في شاهق جبل. لم ينشأ بعيداً عن عيون فرعون. وعن جبروت فرعون، ولكن تشاء إرادة الله تعالى وقدرته أن يلقي به في حجر فرعون (يأخذه عدو لى وعدو له) ويحمله فرعون بيديه ويضعه في حجره ويطعمه ويغذوه بنفسه، ولا يستطيع أن يمسه بسوء أو أن ينال منه أذى، ترى أين كانت احتياطات فرعون وعيونه وهم يرون هذا الصغير ينمو

بينهم،ويعامل في قصر فرعون على أنه ولد لفرعون، أليس هذا من سخريات الأقدار بفرعون وآل فرعون، ألم يفكر واحد منهم ولو للحظة بأن هذا المولود من الممكن أن يكون ولداً لرجل من بني إسرائيل، خاصة وأن الظروف والأحوال المحيطة كانت ترجح هذا الاحتمال فهم الذين يُذبح أطفالهم ويقتلون في كل لحظة، ومن الطبيعي أن يحاول أحدهم حماية ولده بهذه الصورة، لقد أعمى الله أبصار آل فرعون وبصائرهم فلم ينتبهوا لشيء من ذلك، وكيف لا والحق سبحانه قد امتن على موسى بقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩]. إن عين الله هي التي تكلأه وترعاه تحميه من كل جانب وتحفظه من كل ناحية، فلو أن كل قوى البغي فى العالم بأسره قد اجتمعت عليه فلن تستطيع أن تصيبه بأذى أو أن تنال منه مكروهاً.

– لقد كانت رغبة امرأة فرعون من تبنيها لموسى أن يكون قرة عين لها ولفرعون، وأن يدخل البهجة والسرور على هذا البيت، ولكن كيف يتحقق هذا وفرعون يسوم الناس سوء العذاب ويذيقهم من النكال أشكالاً وألواناً، فجعل الله الجزاء من جنس العمل، فبدلاً من أن يكون هذا المولود قرة عين لهذا البيت جعله المولى سبحانه عدواً وحزناً يدخل الحزن على قلوبهم جميعاً جزاءً وفاقاً لما اقترفته أيديهم من بغي وظلم في الأرض وفساد كبير. فكما أدخلوا الحزن على قلوب الكثيرين وقد انتزعوا أطفال الكثيرين وذبحوهم وروعوا الآمنين، تشاء إرادة المولى سبحانه أن يتبنى آل فرعون طفلاً من بني إسرائيل ليرد إليهم بعض صنيعهم، فيدخل الحزن على قلوب آل فرعون جميعاً. وهذا ما تحقق على يدي نبي الله موسى بعد ذلك،وقد أغرق الله فرعون وجنوده فدخل الحزن والكرب كل بيت من بيوت آل فرعون، حُزناً على أبنائهم وعلى شبابهم ورجالهم الذين ابتلعتهم أمواج اليم.

– ترى كيف كانت مشاعر أم موسى ساعة أن وضعته وأيقنت بأن مولودها ذكر ومعنى ذلك أن أيامه في الدنيا معدودة فهي ترى جنود الطاغية وهم يعيثون في الأرض فساداً يروعون الآمنين ويقتلون الأبرياء ومناظر رؤوس الأطفال المذبوحين تترائى

أمام أعينهم فماذا تفعل بمولودها وشبح الموت يلاحقه من كل جانب ويحاصره من كل ناحية.

لم يتركها المولى سبحانه في مثل هذه المخاطر تأكلها الظنون وتنهشها الأوهام بل ثبتها الحق وأيدها من اللحظة الأولى فمجرد أن وضعته أوحى إليها أن أرضعيه طالما أنك لا تحسين بالخطر أو تشعرين بقربه ودنوه، فإذا ما أحسست بدنو الخطر منك، وأن جنود الطاغية كادوا يصلون إليك حينئذ ﴿أَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٧].

وكأن الحق سبحانه ينبئها بأنه منذ هذه اللحظة سنتولى نحن بصورة مباشرة أمر حمايته والمحافظة عليه، ولقد تضمنت الآية أمرين ونهيين وبشارتين، أما الأمران فهما: أرضعيه، وألقيه في اليم، وأما النهيان: لا تخافي ولا تحزني، وأما: البشارتان إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، ولقد حقق الحق سبحانه لها ذلك كله فلما وضعته في اليم ولم تحتمل فراقه ولما علمت بأنه قد وصل إلى قصر فرعون كادت تصرخ وتعلن للقوم أنه ولدها لولا أن ربط الله على قلبها وثبتها وطمأنها، ولما وصل الرضيع إلى قصر فرعون حرم الله عليه المراضع فرفض هذا المولود قبول أي ثدي لأي مرضعة تقدمت لترضعه، وجعل الحق هذا التحريم سبباً في رده مرة أخرى إلى صدر أمه وأنجز الله لها ما وعده بها فقرت عينها وأيقنت بأن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا تدرك هذا ولا تعلمه.

الحلقة الثانية: شباب موسى وفتوته:

لقد مضت الحلقة الماضية وانتهي الحديث فيها إلى أن موسى قد عاد مرة ثانية إلى أمه فاطمأنت نفسها وقرت عينها ويرفع الستار في الحلقة التالية عن حياة هذا النبي وقد بلغ أشده واختصرت الآيات المسافة بين فترة الميلاد وفترة بلوغه الأشد، ولم تحدثنا كيف مرت هذه الفترة في حياة هذا النبي، بل وقفت بنا مباشرة مع هذا النبي، وبما أكرمه به المولى سبحانه من الحكمة والعلم حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ

وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:١٤].

تعتبر هذه الآية توطئة لفترة الفتوة والشباب في حياة نبي الله موسى فلقد بينت هذه الآية أن موسى حينما بلغ أشده آتاه الله علماً وحكمة وبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية. والاستواء اكتمال النضوج العضوي والعقلي. وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين. وجاء ختام الآية ليضع قاعدة عامة في عطاء المولى سبحانه وهبته (وكذلك نجزي المحسنين) أي كما تفضل الله على نبيه موسى بالحكمة والعلم يجزي من أحسن عمله وأتقنه وقام به على وجه الأمثل.

وجاءت هذه الآيات لتنقلنا مباشرة إلى الحديث عن تلكم الفترة في حياة هذا النبي بعد الحديث عن حضانة أم موسى له ورده إليها ووعد الله سبحانه وتعالى لها بأن موسى سيكون من المرسلين، فتأتي هذه الآية وكأنها توطئة لتحقيق هذا الوعد، ولكن الملاحظ في هذه الآيات أنها نقلتنا فجأة في حديثها من مرحلة الطفولة والرضاعة لنبي الله موسى إلى مرحلة الشباب والفتوة مباشرة دون الحديث عما يتعلق بحياة موسى بين هاتين المرحلتين، ترى أين كان موسى بعد انتهاء فترة حضانته مع أمه هل ظل معها بعد ذلك ؟ أم أنه قد عاد للحياة في قصر الفرعون خاصة وأنه يعتبر ولداً لفرعون بالتبني، لا نستطيع أن نجزم بشيء محدد، ولكن سياق الآيات ينبئ بأن موسى خلال هذه الفترة لم يتأثر على وجه الإطلاق بمعتقدات فرعون وآل فرعون ولم تتلوث نفسه بشيء من القاذورات والعفن الذي تمتلئ به قصور الطغاة، ولعل ارتباطه بأمه التي ولدته كان له دور رئيس في تربيته وتنشأته على الوحدانية الخالصة، خاصة وأن الأم من بني إسرائيل وكما بينت الآيات أنها كانت من المؤمنات الصادقات كما تشعر بذلك الآيات التي تحدثت عن تثبيت الله لها حتى ألقت بولدها في اليم.

ولعل ارتباطه كذلك بأمه الأخرى التي تبنته امرأة فرعون لعل تلك المرأة قد أسلمت وحسن إسلامها، وكان لها دور في رعايته داخل أسوار قصر فرعون،كل هذه مجرد احتمالات تظل قائمة، ولكن الأمر المؤكد أن الحق سبحانه يخبرنا بأنه حينما بلغ

أشده أكرمه المولى سبحانه بالعلم والحكمة وجاء تعقيب الآية ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ليبين بأن نبي الله موسى كان أهلاً لعطاء الله تعالى هذا، فإن الحق أعطاه كما يعطي المحسنين ولو لم يكن منهم لما أكرمه المولى سبحانه بشيء من ذلك.

وبعد هذه المقدمة تذكر لنا الآيات الحدث الرئيس في تلك الفترة من حياة هذا النبي ومن خلال التأمل في الآيات نرى بأن هذه الحلقة تتكون من مشهدين الأول منها وضعناه تحت عنوان: **رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي:**

إن الآيات التالية تصور الحدث الرئيس في تلك الفترة في حياة نبي الله موسى ألا وهو جريمة القتل التي ارتكبها نبي الله موسى ولقد تحدثت الآيات عن ظروف هذا الحدث وملابساته والآثار المترتبة عليه فيقول الحق سبحانه: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ* قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص:١٤-١٦].

توضح الآيات بأن موسى قد دخل المدينة أي مدينة هي ؟ لم تفصح الآيات عن ذلك ولكن من خلال التعريف لهذه المدينة ينبئ بأنها مدينة ذات شأن لعلها عاصمة مملكة فرعون في هذا الوقت دخلها في وقت هدوء وأهلها في غفلة، ولعل الوقت كان ساعة القيلولة فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه، وتصوير الأمر على هذا النحو يبين بأن المعركة قد حسمت بين موسى وآل فرعون منذ وقت بعيد فموسى له شيعة وله أعداء، وبلغ الأمر من وضوحه أنه لما نشب صراع بين هذين الشخصين استغاث الإسرائيلي بموسى، وهو على ثقة تامة بأن موسى لن يخذله فهو من شيعته، وإلا ما استغاث به لو كان هذا الإسرائيلي يعلم بأن موسى ابناً لفرعون، وبالإضافة إلى ذلك كان تصرف موسى وتعامله مع الطرف الآخر يؤكد ذلك، فموسى لم يكن طرفاً محايداً يفصل بين متنازعين بل اتجه إلى خصمهما فوكزه بيده فضربه

ضربة أصابت منه مقتلاً فخر صريعاً بين يديه، وهذا أمر لم يتوقعه موسى ولم يقصده، فلقد كانت مجرد وكزة بيديه، ولذلك قال هذا من عمل الشيطان فاندفاعه بهذه الصورة وارتكابه لهذا الجرم من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، واتجه إلى ربه سبحانه مقراً بخطئه معترفاً بجرمه طالباً من ربه العفو والمغفرة، فغفر له ربه ما بدر منه واستشعر موسى فضل ربه عليه فعاهد ربه بأنه بعد هذه المرة لن يكون عوناً للمجرمين على جرائمهم.

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ففي اليوم التالي وموسى وجل خائف مما حدث يترقب الأخبار وينتظر ما ينتهي إليه الأمر إذ بهذا الإسرائيلي مرة أخرى يستغيث بموسي على رجل آخر، ولم يعجب هذا الأمر موسى وعنف الرجل على أفعاله هذه فهو مصدر شر وإزعاج فقال له إنك لغوي مضل مبين.

ولكنه في الوقت ذاته ضاقت نفسه بالظلم والبغي والعدوان من فرعون وآل فرعون، فهمّ أن يبطش بهذا القبطي أيضاً فلقد عبر القرآن بأنه عدو لهما فقال له القبطي: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس أتريد أن تفعل ذلك كما فعلتها بالأمس، وقول القبطي لموسى هذا القول كان من باب الظن والتوقع أن تكون فعلة الأمس من صنيع موسى، فمن من الناس يجرؤ على الإقدام على قتل شخص من آل فرعون في مثل هذا الوقت، وكانت الشبهات تدور حول موسى عليه السلام، خاصة وأنه من الممكن أن يكون الخبر قد تناقلته الألسنة بين بني إسرائيل على أنه نوع من التمرد على الظلم القائم، فلما هم موسى بقتل القبطي تأكد الرجل أن من فعلها بالأمس هو موسى فقال له ذلك فلما واجه موسى بذلك وذكره بما فعل كف هذا من ثورة الغضب عند موسى فلم يقدم على قتل الرجل، وأفلت الرجل من يد موسى، ولكن تأكد القوم بأن جريمة الأمس قد وقعت على يد موسى، فاهتم بها الملأ وكبراء القوم لما تحمله في طياتها من معنى التمرد ومقاومة الظلم القائم، ورأوا بأن في هذا الحدث شرارة فتنة تكاد تطل برأسها تأكل الأخضر واليابس لو لم يبادروا إلى القضاء عليها في مهدها

فكان تآمرهم على قتل موسى والخلاص منه، فوجوده صار خطراً على أمنهم واستقرار ملكهم، فهم لا يأمنون أن يقود رجل كموسى بني إسرائيل في ثورة للتمرد على النظام القائم، ولكن الحق سبحانه قيض له من بينهم رجل اطلع على ما يتآمرون به فجاء إلى موسى محذراً وكان الأمر كما صورته الآيات بعد ذلك:

﴿وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [الآيات:٢٠-٢٢].

لقد عرف الملأ من قوم فرعون، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه أن جريمة القتل التي وقعت من صنيع موسى. وما من شك أنهم أحسوا فيها بشبح الخطر. فهي فعلة طابعها الثورة والتمرد، والانتصار لبني إسرائيل. وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التآمر. ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحقت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء. فانتدبت يد القدرة واحداً من الملأ. الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، والذي جاء ذكره في سورة [غافر] انتدبته ليسعى إلى موسى (من أقصى المدينة)في جد واهتمام ومسارعة، ليبلغه قبل أن يبلغه رجال الملك: (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، فاخرج إني لك من الناصحين).. أخرج قبل أن يصلوا إليك فنصيحتي لك خالصة ليس فيها أدنى شك.

(فخرج منها خائفا يترقب. قال: رب نجني من القوم الظالمين). لقد خرج من المدينة وترسم لنا الآيات صورته حال خروجه خائفاً من القوم أن يمسكوا به يترقب يتلفت يميناً ويساراً.

لقد خرج بلا دليل وبلا زاد وتحدد الآيات الوجهة التي قصدها موسى لقد توجه تلقاء مدين لقد قصد جهة مدين ما بين الشام والحجاز بلا زاد ولا دليل يساعده في هذه الرحلة، خاصة وأن الأمر قد تم فجأة وبلا مقدمات متوقعة، فكان خروج نبي الله موسى

على هذا النحو محاولة للفرار من الخطر الذي يتهدده، كل همه أن ينجو من بطش فرعون ومن كيد الملأ من آل فرعون، فخرج في رحلة بلا ترتيب ولا إعداد ولا دليل، ولكنه مع ذلك لم ينقطع أمله في الله سبحانه ولا رجاؤه فيه أن يكون هاديه ومرشده في دروب الصحراء هذه فقال: عسى ربي أن يهدين سواء السبيل.

ويسدل الستار في هذا المشهد عند هذا الحد حيث موسى هارب من مصر قاصداً أرض مدين، وهو يدعو ربه أن يرشده وأن يأخذ بيده في هذه الطريق الوعرة، وتطوي الآيات المسافات طياً في تلك الرحلة، فلا تخبرنا بما تم في أثناء هذه الرحلة، ولا بشيء من المتاعب أو المخاطر التي تعرض لها نبي الله موسى أثناء الطريق، وإنما تنقلنا الآيات مرة واحدة إلى أرض مدين وقد وصل إليها موسى بعد طول عناء ليرتفع الستار بعد ذلك على هذا المشهد الذي جعلناه تحت عنوان:

إن خير من استأجرت القوي الأمين

لقد وصل موسى إلى أرض مدين في شمال الجزيرة وجنوب الشام وتصور الآيات المشهد الذي أطل عليه موسى لما وصل إلى هناك حيث يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ* فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٣-٢٤].

إن هذه الآيات تبين مرحلة جديدة في حياة هذا الرجل وقد ورد ماء مدين لقد وصل إلى مكان تدب فيه الحياة فمناظر الرعاة وقطعان الغنم ما كانت شيئاً قليلاً وإنما كما صورت الآيات (وجد عليه أمة من الناس يسقون)أنهم أمة من الناس يسقون ما كانوا واحداً أو اثنين وإنما أمة بأكملها مهنتهم رعي الأغنام رآهم وقد تزاحموا على موارد المياه لسقي قطعانهم ولفت نظره وجود امرأتين بقطيعهما في وسط هذا الزحام تزودان وتدفعان قطيع أغنامهما بعيداً عن مزاحمة الرجال فلفت هذا نظره ومع أنه غريب ولم يسترح بعد من وعثاء السفر ومصاعب الطريق لم يعجبه هذا المنظر فتقدم

من المرأتين ما خطبكما –والخطب هو الأمر العظيم، فكأن وقوفهما بهذا الصورة بعيداً إلا لأمر جلل هو الذي استدعى ذلك فسألهما عنه لماذا تقفان بعيداً فأخبرته المرأتان بأنهما لا يسقيان حتى ينتهي الرعاة جميعاً من السقي، وكأنهما يشعران بالحرج ويحسان بأن وجودهما في وسط الرجال ومزاحمة الرجال أمر غير مقبول فاعتذرتا عن ذلك بقولهما (وأبونا شيخ كبير) أي أنه لولا أن أبانا شيخ كبير طاعن في السن ما وقفنا مثل هذا الموقف، فتقدم موسى وزاحم الرجال وسقى للمرأتين ومع كونه رجل غريب غير معروف بين الرعاة وقد يستهجن الرعاة صنيعه هذا، ولكن طالما أن الرعاة لم يقدروا ضعف المرأتين ويفسحوا لهما المجال ليقوما بسقي أغنامهما ويعودا مبكرين قبل حلول الظلام فليبادر هو إلى ذلك، وليكن من الأمر ما يكون، فسقى لهما قطيعهما ثم بعد ذلك تولى إلى الظل ولم يسأل واحداً من الرعاة شيئاً مع أنهم أمة من الرعاة، وكان من الممكن أن يطلب من أحدهم معونة أو مساعدة، كذلك انتهت مهمته مع المرأتين بسقي القطيع ولم يجعل منها فرصة ليقيم حواراً مع المرأتين أو يطالبهما بأجر نظير ما قام به من عمل، وإنما كان من أمره كما ذكرت الآيات ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾لقد قام موسى بما ينبغي عليه القيام به فسقى للمرأتين ولم يزد على ذلك شيئاً، ثم بحث عن مكان ظليل أوى إليه وهو يشعر بحاجته إلى من يعينه فما سأل واحداً من الناس معونة، وإنما تضرع إلى ربه –سبحانه– إنى فقير وفي أمس الحاجة إلى ما ينزل إليّ من كل خير يأتيني من قبلك وينزل إليّ من عندك.لقد كان هذا تضرع موسى إلى ربه سبحانه فجاءت الإجابة أسرع مما يتوقع كما ينبئ عن ذلك أسلوب الخطاب في الآيات التالية وهي تعرض لنا هذا المشهد لموسى في أرض مدين:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ* قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ

إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ* قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٥-٢٨].

لقد جاء الفرج من الله سبحانه بأسرع مما توقع نبي الله موسى فهو لم ينتظر يوماً أو يومين، ولكن ما هي إلا لحظات على قدر عودة المرأتين بالقطيع عادت إليه إحداهما ولم تأت إليه سافرة متبجحة وإنما كما صورت الآيات هيئتها إنها تمشي على استحياء لقد بلغت من أدبها وعفافها كأن الحياء طريق تمشي عليه، وخاطبت موسى بعبارات واضحة لا لبس فيها ولا تلعثم ولا غموض (إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) وتحمل هذه الدعوة في طياتها احترام هذا الغريب وتقديره، فلم تقل له إن أبي يدعوك لكرم الضيافة عنده، ولكنها في خطاب دعوتها له تشعره بأنه قد قام من أجلهما بعمل عظيم يستحق من أجله أجراً فيشجعه هذا على المضي معها فمضي معها، وطوت الآيات المسافات ووقفت بنا مع موسى وقد جاء إلى الرجل (فلما جاءه وقصص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) لقد أخبر موسى الشيخ الكبير بأمره كله وقص عليه نبأه مع فرعون وآل فرعون، ويحس الرجل بأن موسى في حاجة إلى الأمن أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب فطمأنه بأنه قد نجى من بطش فرعون فما عاد لفرعون سلطان على أرض مدين حيث وصل إليها نبي الله موسى.

وبعد هذا الحوار بين الرجلين تدخلت إحدى الفتاتين في الحوار ورأت بأنها فرصة لها ولأختها لتستريح من متاعب العمل، وويلات الرعي، ومزاحمة الرجال فقالت لأبيها: يا أبت استأجره فهي خير من يصلح للقيام بهذه المهمة فهو القوي الأمين، وهي شهادة منها على حسن أخلاق هذا الغريب ولقد رأت من صدقه وقوته ورجولته وشهامته الكثير، وشهادة المرأة في حق الرجل أصدق دليل على ما تنطوي عليه أخلاقه، فيمكنها الحكم علي الرجل من خلال نظراته إليها وحديثه معها وطريقة معاملته لها، ولقد تعاملت مع موسى عن قرب فوجدته نعم الرجل قام بما يقوم به الرجل الشهم

النبيل وساعد المرأتين ولم ينتظر منهما أجراً ولا شكوراً.

ويوافق أبوها على هذا الاقتراح ولكن بخبرة الشيخ المحنك قدم عرضاً لنبي الله موسى يحقق للجميع هدفه في وقت واحد وكلهم يكون فيها راضياً ومطمئنا ومسروراً، فأمامه شخص غريب في حاجة إلى مأوى، وفي حاجة كذلك إلى عمل يتكسب منه ما يغنيه عن ذل السؤال، كي لا يكون عالة على غيره. والرجل شيخ عجوز في حاجة إلى أجير يرعى له أغنامه ويساعده في شأنه، وفي الوقت ذاته لديه فتاتان في حاجة إلى أزواج، فلكي تكون إقامة هذا الغريب في بيته إقامة طبيعية ولا يكثر من حولها اللغط أو الهمس والقيل والقال، خطب هذا الشيخ نبي الله موسى لإحدى ابنتيه وأن يكون صداقها العمل عنده ثمان سنين ولو أتمها عشراً فهذا تفضل منه: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ* قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٧-٢٨].

ويقبل نبي الله موسى هذا العرض من الرجل ويوافق عليه فلقد هيأ له هذا العرض فرصة عمل مناسبة، وفي الوقت ذاته ملاذاً آمناً من مطاردة فرعون وبالإضافة إلى ذلك زوجاً صالحة في بلاد هو فيها غريب عن أهلها خاصة وأن الكثير من الناس لا يرضى بمصاهرة الغرباء. وهذا كله مما قدره الله سبحانه لهذا النبي في تلك الفترة من حياته.

وتقف بنا الآيات عند هذا المشهد في حياة نبي الله موسى عند لحظة إتمام هذا العقد بين موسى والرجل الصالح هذا فلا تحدثنا بما فعله موسى أثناء هذه المدة التي قضاها في أرض مدين وإنما تنقلنا مرة واحدة إلى اللحظات الأخيرة منها وقد قضى موسى الأجل وسار بأهله وهو موضوع الحلقة التالية في حياة هذا الرجل ولكن قبل الحديث عنها لنا وقفات مع ما سبق نستخرج منها الدروس والعبر والأحكام والعظات:

دروس وعبر:

في هذه الفترة من حياة نبي الله موسى دروس وعبر كثيرة:

الأولى: لقد كان قدر الله لموسى أن ينتقل من حياة الرغد والرفاهية في قصر فرعون إلى حياة أخرى مختلفة عن هذه تماماً إلى حياة الرعي ومكابدة المشاق في بطون الصحراء فهذا جانب من جوانب إعداد الله سبحانه لموسى لتلقي أعباء الرسالة وتحمل مشقات التكاليف بعد ذلك.

الثانية: وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً هذا هو حال موسى في هذه المرحلة من حياته فلقد كانت ضربته للقبطي سبباً في وفاته، ترى هل كان من الممكن لموسى أن يترك مصر وأن يفر هارباً منها إلى أرض مدين لو لم يضرب هذا القبطي تلك الضربة القاضية التي أودت بحياته فكانت سبباً مباشراً في هروب موسى من أرض مصر لقد تم الأمر على هذا النحو بتقدير من الله. لتتم تربية موسى وإعداده الإعداد اللائق بأصحاب الدعوات، وليتم إعداده بعيداً عن حياة القصور وما يدور في دهاليزها وبين جنباتها من فتن ومؤامرات، ولينشأ في بيئة الصحراء النقية في هوائها والنقية كذلك في طباع وخصال أهلها فهم على فطرتهم وبداوتهم ما تلوثت طباعهم وأخلاقهم بما تلوثت به طباع وأخلاق أهل المدن.

الثالثة: قد يتساءل المرء ترى ما هي الديانة التي كان يدين بها صهر نبي الله موسى لم تخبرنا الآيات عن هذا صراحة، ولكن خلال الآيات نستطيع أن نتعرف على ديانته:

فهو رجل على درجة عالية من محاسن الأخلاق نلمح ذلك من خلال تربيته لابنتيه فحينما خرجت البنتان إلى ميدان العمل ظهر حسن التربية على سلوكهما في أثناء العمل.

فلقد كانتا حريصتين على عدم مزاحمة الرجال في ميدان العمل ولما سألهما موسى عن شأنهما اعتذرتا عن عملهما هذا بأن أباهما شيخ كبير، ولما جاءت إحداهما

إلى موسى كان الحياء هو السمة الغالبة عليها وهي تخاطب هذا الأجنبي.

ونلمح جانباً من أخلاق هذا الرجل من خلال اتفاقه مع نبي الله موسى فإننا نرى بأن الرجل كان مؤمناً بالله سبحانه وتعالى وحده مؤدياً لشعائر الإسلام ومناسكه فلقد ربط عقده واتفاقه مع نبي الله موسى بشعيرة الحج (ثماني حجج) بدلاً من ثمانية أعوام، أضف إلى ذلك أنه قد رد الأمر كله ربه سبحانه وربطه بمشيئته وإرادته (ستجدني إن شاء الله من الصالحين) ودلت الآيات أيضاً على تواضع الرجل وحسن أخلاقه فهو يطمئن موسى عند إتمام الصفقة بأنه سيكون من الصالحين.

ولما عقد موسى معه هذه الصفقة جعل ربه وكيلاً عليها وشاهداً وضامناً لها فأقره الرجل على ذلك ولم يخالفه الرأي فدل ذلك كله على أن هذا الرجل كان من المؤمنين بالله سبحانه وتعالى وحده المخلصين له في العبادة.

وبالإضافة إلى ذلك إن بيت هذا الرجل هو البيت الذي اختاره المولى سبحانه لنبيه موسى ليتخذ منه زوجه وموسى كليم الله ومن أولي العزم من الرسل فمما لا شك فيه أن الحق سبحانه لن يختار لنبيه إلا أكرم البيوت وأعرق العائلات.

الرابعة: من خلال قصص القرآن نجد أن هناك وجوهاً من الشبه بين قصة نبي الله موسى ونبي الله يوسف عليهم جميعاً أفضل الصلوات وأتم التسليم وذلك على النحو التالي:

كلاهما أنتزع من حضن والديه صغيراً ولكن الملاحظ أن آيات القرآن في قصة يوسف عليه السلام كان حديثها عن دور الأب في حياة هذا النبي وأغفلت دور الأم تماماً، أما في قصة موسى فلقد كان تركيزها على دور الأم ودور الأب في حياة هذا النبي لم تذكر عنه شيئاً.

- أحداث كثيرة في حياة نبي الله يوسف ونبي الله موسى كانت كلها تسير بتقدير الله المباشر على نحو يعجز عقل المرء عن تصوره أو استيعابه فموسى ألقت به أمه في اليم ويوسف ألقى به إخوته في قاع بئر مظلم، ولكن أوحى الله إلى يوسف بأنه

سيخبر إخوته يوماً ما بصنيعهم هذا، أما في أمر موسى فكان الوحي والإلهام إلى أمه (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين).

- كلاهما استقر به المقام في قصر من قصور الحكم في مصر ونشأ وترعرع فيه ولداً بالتبني لسيد هذا القصر، ولكن في شأن يوسف كان الحرص على تربيته والعناية به من رجل القصر عزيز مصر وقال لامرأته: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف:٢١].

أما في شأن موسى فإن الحرص على تبنيه ورعايته كان من سيدة القصر امرأة فرعون هي التي قالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:٩].

- كلاهما نشأ في بيئة وثنية في زمن يوسف كان الشرك بالله سبحانه والكفر والفجور والانحلال كان قد بلغ نهايته.

وفي زمن موسى كان الكفر بالله والطغيان والإفساد في الأرض كان قد وصل إلى نهايته، ومع ذلك حفظ الحق سبحانه حياة النبيين الكريمين على الله فلم تتلوث أخلاق واحد منهما بما كان يموج به عصرهما من الموبقات، أو تتغير طباع أحدهما بحجة أن البيئة التي قد عاشا فيهما هي التي فرضت عليهما هذا السلوك، فلم يسجدا يوما لصنم، أو سمعنا أن واحداً منهما قد اقترف جرماً أو ارتكب إثماً. لقد حفظ الله حياة الاثنين حتى بلغ كل منهما أشده وهو على القمة في الطهر والعفاف والنقاء فكان أهلا حينئذ لأن يمن الله عليهما بالحكمة والعلم وقال الله في حق يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢].

وفي حق موسى عليه السلام قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:١٤].

- تراوحت حياة الاثنين في حياتهما بين صنوف مختلفة للمعيشة والحياة فلقد بدأت حياة الاثنين منعمين في رغد القصور فيوسف كان يحيا في قصر العزيز كان

يحيا في هذا القصر بمثابة الولد له ولامرأته يرفل في كل ألوان النعيم ورغد العيش.

وموسى يعتبر في هذه الفترة أحد أبناء فرعون يعيش في قصره ويتنعم بخيراته.

ولكن بعد رغد العيش هذا يفقد الاثنان ذلك كله وينتقل الاثنان إلى حياة البؤس والفقر والشدة والابتلاء فيوسف ينتقل من حياة القصور إلى حياة السجون ومن رغد العيش ودفء الفراش ونعومته إلى شظف العيش وبرودة جدران الزنازين ويقضي يوسف في غياهب السجن بضع سنين. أما موسى فنراه يفقد كل ما كان فيه في لحظة يوم أن قتل القبطي لقد تحول حاله من ولد لفرعون المدلل إلى المجرم المطارد المتهم بجريمة قتل.

– ظروف انتقال الاثنين من حياة القصور ورغد العيش إلى حياة الشدة والمسكنة كانت ظروفاً متشابهة تقريباً فيوسف يفقد ذلك كله ويلقى به في غياهب السجن إثر اتهام بالخيانة موجه إليه من قبل العزيز وامرأة العزيز. وموسى يفقد ذلك كله إثر ارتكابه لجريمة قتل خطأ.

– كلا النبيين كان للمرأة في حياتهم شأن، ولكن تقدير الله سبحانه أن دور المرأة في حياة نبي يوسف كان على النقيض تماماً منه في حياة نبي الله موسى، ففي الوقت الذى كانت المرأة في حياة نبي الله يوسف محنة له، كانت في حياة نبي الله موسى منحة ورحمة من عند الله تعالى، فلقد تمثلت المحنة في حياة نبي الله يوسف مع سيدة القصر امرأة العزيز هي التي حاولت إغراءه والإيقاع به فلما لم تصل إلى بغيتها تآمرت مع النسوة عليه حتى آل أمره في نهاية المطاف إلى غياهب السجن فلبث فيه بضع سنين.

أما في حياة نبي الله موسى فلقد كانت المرأة في حياة هذا النبي من نعمة من أجل النعم التي أنعم الله بها على هذا النبي، بداية من أمه التي حملت وأرضعت وألقت به في اليم، وهو وليدها وثبتها الله وطمأنها ومروراً بسيدة القصر امرأة فرعون التي قيضها الله سبحانه لتكون السبب المباشر في حماية موسى عليه السلام داخل جنبات

قصر فرعون فهى التي نادت بأعلى صوتها لا تقتلوه، وتعبير الآية يشعر بأن القوم قد هموا بذبحه والقضاء عليه فعلاً فأنقذته من بين أيديهم، وجعلها المولى سبحانه سبباً في نجاته من كيدهم، ولما كانت هي سيدة القصر فلقد كانت كلماتها أوامر تسمع وتنفذ وتطاع.

ولا ننسى كذلك دور الأخت التي خاطرت بنفسها وتتبعت تابوت أخيها حتى دخل القصر فدخلت مع الداخلين إلى القصر، وكان من الممكن أن يكتشف الجميع أمرها وأمر أخيها الرضيع لولا حفظ الله سبحانه فلما امتنع موسى عن الرضاعة من مرضعات فرعون أشارت على القوم بمن يكفل لهم هذا الرضيع ويرعاه ويقوم على شأنه، وكانت بحكمتها وفطنتها سبباً في عودة الصغير إلى صدر أمه.

أما المرأة الرابعة في حياة هذا النبي فهي إحدى ابنتى الرجل الصالح في آل مدين صاحبة قطيع الغنم تلك التى ساعدهما موسى في سقي القطيع وكان لرأيها وحكمها على أخلاق نبي الله موسى كان لهذا الرأي دور كبير في ثقة أبيها في موسى مما وفر لموسى فرصة العمل المناسبة له في بلاد الغربة، وهيأ له الزوجة الصالحة كذلك فقضي في بلاد الغربة عشر سنين لا يشعر بآلام الغربة أو يحس بشئ من متاعبها.

الخامسة: تضع قصة موسى مع المرأتين في بلاد مدين ضوابط عمل المرأة وظروفه، ومن خلال هذه القصة يمكن بيان بعض الضوابط التي تتعلق بعمل المرأة بما يجعله منسجماً مع قيم الإسلام ومبادئه ومن خلال هذه القصة نلاحظ ما يلي:

لم تزاحم المرأتان بأكتافهما أكتاف الرجال في ميدان العمل وبينت هذه العبارة موقفهما (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) تنتظرا بعيداً بقطيع الغنم حتى ينتهي الرعاء من السقيا، مع أن الأمر الطبيعي أن يتنحى الرجال حتى تقوما بسقي أغنامهما، ولكن لما لم يفعل الرجال ذلك تنحت المرأتان بالقطيع حتى ينتهي الرجال ثم تقوما بسقي أغنامهما.

– أنها حينما خرجت ما خرجت متبرجة أو متبخترة سافرة تمشي بين الناس بلا

أدب أو حياء، أو تمشي بين الناس بعين وقحة ونظرات جريئة، وإنما كما صورت الآيات هيئتها ومشيتها (تمشي على استحياء) فهي تمشي وكأن الحياء لها طريق تسير عليه.

– أنها ما كانت حريصة على العمل مصرة على البقاء خارج من البيت، تحت أي ظرف ولأي سبب من الأسباب، وإنما كانت تنظر إلى العمل خارج البيت على أنه أمر طارئ، ولسبب قهري، وتتمنى لو أنها استراحت منه، ولو سنحت لها الفرصة لتترك العمل خارج بيتها فإنها لا تتردد في اغتنامها، وهذا ما صنعته ابنة هذا الرجل الصالح، فإنها لما رجعت إلى أبيها وأخبرته بما دار أثناء هذا اليوم وأرسلها مرة أخرى لتحضر هذا الضيف الغريب، وبعد حوار هذا الضيف مع أبيها رأت في وجود هذا الغريب فرصة لا ينبغي لها أن تفوتها من يدها فعرضت على أبيها أن يستأجره فهو خير من يصلح للقيام بهذه المهمة فهو القوي الأمين.

السادسة: من خلال الآيات كذلك نستشف حكمة الشيخ الكبير وكياسته وحنكته وفطنته كذلك حينما عرض على نبي الله موسى أن ينكحه إحدى ابنتيه، فإن الرجل كان في حاجة ماسة إلى أجير لديه ليقوم برعاية أغنامه وليريح ابنتيه كذلك من عناء هذا العمل، فلو أنه قد عرض على نبي الله موسى أن يكون أجيراً عنده لوقع في حرج من أكثر من جانب:

أولاً: رجل أجنبي في بيته وليس في البيت سوى ابنتيه وهذا أدعى لأن يكثر القيل والقال حينئذ من جراء وجود رجل أجنبي غريب ليس فيه سوى شيخ عجوز وامرأتين في سن الزواج.

الأمر الثاني: أنه سيُطالَب بأجر يدفعه لهذا الأجير قد يشق عليه الوفاء به.

الثالث: أنه سيظل غريباً لن يؤتمن على شيء ولن يوثق به بحال من الأحوال، ولكن لما عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه رفع عنه الحرج كله فلقد صارت إقامة هذا الغريب في بيته إقامة مشروعة فهو زوج إحدى بناته بالإضافة إلى أنه لم يكلف

بتوفير أجر لهذا الغريب فلقد جعل صداق ابنته أجرة هذا الرجل وعلاوة على ذلك اطمأن إليه بصورة كاملة فلقد صار واحداً من أهل هذا البيت. أضف إلى هذا أنه قد ظفر بزوج صالح لإحدى بناته يحميها ويحفظها ويكرمها، ويرعاها، ويعفها ويحصنها.

السابعة: الحكمة في اختيار زوجة نبي الله موسى من أرض مدين:

لقد كانت هناك خيارات عدة أن تكون زوجة هذا النبي من شيعته من بني إسرائيل، أو أن تكون من آل فرعون، أو تكون حيث قدر الله –سبحانه– من آل مدين فأي هذه الخيارات الثلاث هو الأنسب والأفضل لنبي الله موسى:

أما عن الخيار الأول وهو أن تكون زوجة نبي الله موسى من بني إسرائيل فلا يعتبر هذا الخيار أفضلها لما يأتي:

– أن الزواج بين الأقارب ليس من الأمر المحمود، ولقد أثبت العلم الحديث بأنه كلما ابتعد المرء في اختياره في الزواج عن الأقارب يكون هذا أكثر نجابة في الولد وأوفر صحة في بحث طويل ليس هذا بموضعه.

–في حديث القرآن عن بني إسرائيل تصور الآيات حال هؤلاء وقد عاشوا تحت أقدام الفراعنة لقرون حتى فسدت فطرتهم وانتكست طبيعتهم وارتضوا حياة الذل لدرجة أنهم لم يستطيعوا الخلاص منها حتى بعد أن نجاهم الله من بطش فرعون وكانت كلمتهم بعد ذلك: {اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ}[المائدة:٢٤]. فقوم أخلاق رجالهم بهذه الصورة فكيف بنسائهم، فلم يختر الله لنبيه موسى زوجاً من وسط كهذا.

– أما عن الخيار الثاني وهو أن تكون امرأة نبيه من آل فرعون فهو خيار غير مقبول كذلك لما يأتي: أولاً: ليس هناك قاسم مشترك من الممكن أن يجمع بين الزوجين فكلاهما على طرفي نقيض من الآخر: الرجل مؤمن بالله –سبحانه– والمرأة على دين قومها امرأة مشركة. الرجل من بني إسرائيل والكل على علم بنظرة آل فرعون إلى بني إسرائيل نظرة الاستعلاء والاستكبار ولن تختلف نظرة نسائهم عن نظرة رجالهم في الأمر ومن مقومات الزواج الناجح الاستقرار النفسي بين الزوجين والتكافؤ

الاجتماعي وهو غير متوفر في هذا الزواج.

ثانياً: إن زواجاً كهذا سيمثل عبئاً وثقلاً على كاهل نبي الله موسى فإن قدر الله - سبحانه- أن تكون رسالة هذا النبي إلى فرعون وآل فرعون وهم العدو اللدود لموسى ولبني إسرائيل وسيحدث من المنازلات والصراعات بين الفريقين ولن تكون المرأة فيه عوناً لزوجها على قومها وأقل ما في الأمر أن موقفها سيكون موقفاً سلبياً، وهذا أمر لا يستقيم مع أصحاب الدعوات الذي ينبغي أن يكون استقرار الداعية في بيته هو القاعدة التي ينطلق منها لإصلاح المجتمع كله.

لذلك لم يتبق إلا الخيار الثالث ألا هو أن تكون امرأة هذا النبي من أرض مدين وكل أسباب النجاح متوفرة فيه ولما يأتي:

أولاً: كل المظاهر السلبية التي رأيناها في الخيارين السابقين ليست موجودة في هذا الخيار. فالمرأة على فطرتها النقية ما تلوثت فطرتها بالحياة في جو ملوث كما تحيا النساء في القصور وما استعبدت يوماً وأحست بالذل والهوان.

ثانياً: المرأة هنا ذات دين وخلق وحياء نشأت في بيت مؤمن ربيت في هذا البيت على الطهر والعفاف ومكارم الأخلاق.

ثالثاً: المرأة هنا ليست مرفهة ولا مدللة وإنما راعية غنم تعيش في الصحراء بين العواصف والأنواء، عندها المقدرة على التحمل والصبر والشجاعة، ومن تمكنت قبل لقاءها بنبي الله موسى أن تحفظ نفسها وأغنامها من الذئاب حتماً ستكون نعم العون لزوجها في مستقبل حياته.

رابعاً: المرأة تحيا في بيئة مشابهة تماماً لتلك البيئة التي سينتقل إليها نبي الله موسى وبني إسرائيل بعد ذلك، فهي على علم بدروبها ومسالكها وعلى دراية تامة بتاريخ المكان وطبائع أهله فلن تكون هناك مشقة وصعوبة للحياة في مثل هذه الظروف بعد ذلك، ولن تمثل عبئاً أو ثقلاً على نبي الله موسى بل ستكون عوناً له في ميدان عمله ودعوته.

خامساً: هذه المصاهرة ستزيد أواصر الألفة والمحبة بين نبي الله موسى وبين تلك القبائل الموجودة في أرض مدين والتي تنتمي إليهم تلك المرأة وهو أمر من الأهمية بمكان في مستقبل حياة هذا النبي.

الثامنة:

لقد عمل نبي الله موسى في رعي الغنم وما من نبي إلا ورعى الغنم فما الحكمة في ذلك ؟ الإجابة في الكلمات التالية[1]

١- **الصبر:** على الرعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظراً لبطء الغنم في الأكل، فيحتاج راعيها إلى الصبر والتحمل، وكذا تربية البشر[2].

إن الراعي لا يعيش في قصر منيف، ولا في ترف وسرف، وإنما يعيش في جو حارّ شديد الحرارة، وبخاصة في الجزيرة العربية، ويحتاج إلى الماء الغزير ليذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطعام وشظف العيش، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمّل هذه الظروف القاسية، ويألفها ويصبر عليها[3].

٢- **التواضع:** إذ طبيعة عمل الراعي خدمة الغنم، والإشراف على ولادتها، والقيام بحراستها، والنوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها، أو شيء من روثها فلم يتضجر من هذا، ومع المداومة والاستمرار يبعد عن نفسه الكبر والكبرياء، ويرتكز في نفسه خلق التواضع[4]. وقد ورد في صحيح مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: "إن الله جميل يحب

---

(١) السيرة النبوية للدكتور علي محمد الصلابي ١/ ٦٥ وما بعدها والعبارات التالية منقولة عنه حتى آخر هذه الفقرة.

(١) انظر: مدخل لفهم السيرة، د/ اليحيى (ص١٢٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص١١٤، ١١٥).

(٣) المصدر السابق (ص١١٤).

الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس"[١].

٣- الشجاعة: فطبيعة عمل الراعي الاصطدام بالوحوش المفترسة، فلابد أن يكون على جانب كبير من الشجاعة، تؤهله للقضاء على الوحوش ومنعها من افتراس أغنامه[٢].

٤- الرحمة والعطف: إن الراعي يقوم -بمقتضى عمله- في مساعدة الغنم إن هي مرضت، أو كُسرت أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها، وعلاجها والتخفيف من آلامها، فمن يرحم الحيوان يكون أشدّ رحمةً بالإنسان، وبخاصة إذا كان رسولاً أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان، وإرشاده وإنقاذه من النار، وإسعاده في الدارَين[٣].

٥- حب الكسب من عرق الجبين: إن الله قادر على أن يغني أنبياءه عليهم الصلوات والسلام عن رعي الغنم، ولكن هذه تربية لهم ولأمتهم بالأكل من كسب اليد، وعرق الجبين. ورعي الغنم نوع من أنواع كسب اليد.

روى البخاري عن المقدام -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود -عليه السلام- كان يأكل من عمل يده"[٤].

ولا شك أن الاعتماد على الكسب الحلال يكسب الإنسان الحرية التامة، والقدرة على قول كلمة الحق والصدع بها[٥].

* * *

(٤) مسلم كتاب الإيمان. باب تحريم الكبر.

(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص١١٤).

(١) انظر: مدخل لفهم السيرة (ص١٢٧).

(٢) البخاري، ك/ البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده .

(٣) انظر: مدخل لفهم السيرة، ص١٢٨.

الفصل الثاني: إنك بالوادي المقدس طوى.

لقد مضت فترة الإعداد والتربية في حياة موسى وبعد سنوات قضاها في أرض مدين يرعى فيها الغنم بموجب اتفاق بينه وبين صهره وبعد أن انقضت المدة التي اتفقا عليها، ها هو يسير بأهله، ولم تفصح الآيات عن الوجهة التي كان يقصدها نبي الله موسى تراه هل كان قاصداً أرض مصر مرة أخرى فقد شده الحنين إلى أهله وعشيرته، أم أنه كانت له وجهة أخرى لم تخبرنا الآيات بشيء من ذلك فنقف عند حدود النص كل ما أخبرتنا به الآيات أنه بعد انقضاء المدة سار بأهله، وهذا الموقف تناوله عدد من السور ولكنه جاء في كل سورة على طريقتها الخاصة، فلقد جاء الحديث عنه في سورة القصص والنازعات وفي الشعراء والنمل وسورة طه وكل سورة من هذه السور أخذت حيزاً من الحدث وأضافت إليه جديداً فلقد جاء الحديث عن الخبر بصورة موجزة في سورة النازعات وكان بمثابة توطئة وتمهيد للحديث عن حياة هذا النبي: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٥-١٩].

أما سورة القصص فلقد تناولت آياتها الحديث متصلاً بحياة موسى في أرض مدين وبعد أن قضى الأجل المتفق عليه مع صهره سار بأهله:

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ

أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص:٢٩-٣٥].

وجاء الحديث في سورة النمل على هذا النحو:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ *فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ* إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ* فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ* وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل٧-١٤].

أما في سورة طه فلقد بدأ الحديث فيها بصورة مفصلة وتضمنت جوانب من الحوار لم تذكر في سور أخرى وجاء الحديث فيها على النحو التالي:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى* إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى* فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى* إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى* وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى* إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي* إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى* فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى* وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى* قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى* قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى* قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى* وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى* لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى* وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ

تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى* لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى* اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه:٩-٢٤].

هذا مجموع الآيات التي تناولت اللقاء الأول مع نبي الله موسى ومن خلال مجموع هذه الآيات نخلص منها إلى النقاط التالية في حياة هذا النبي:

- لم تحدد الآيات الوجهة التي كان يقصدها موسى وأهله، ولكنها حددت الموضع الذي سارا فيه وهو بجانب الطور جبل في أرض سيناء، ودخل عليهما الليل في هذا المكان وضلا الطريق واشتدت برودة الجو فهما يبحثان عن دليل في هذه الصحراء وعن شعلة نار وهذا ما حدا بنبي الله موسى أن يفتش ويبحث فآنس من جانب الطور ناراً.

- يأمر موسى أهله أن ينتظروا في أماكنهم حتى يصل إلى موضع هذه النار فإما أن يأتيهم منها بشعلة نار تدفئهم أو يجد عندهم دليلاً يرشدهم في دروب هذه الصحراء فيصل إلى موضع النار. وتصف الآيات بأنها النار المباركة في البقعة المباركة من الأرض.

- من خلال الآيات كذلك نرى عناية الله بموسى فمع أن المهمة شاقة والتكليف بالأمر عسير والخطب جسيم فإن المهمة التي كلف بها هذا النبي أن يذهب إلى فرعون وموسى يعلم من هو فرعون فلقد عاش في قصره ورُبي في حجره وعلى علم تام بجبروت فرعون وبغي فرعون وظلمه وإفساده في الأرض ومما يزيد في صعوبة الأمر على موسى قتله للمصري قبل أن يفر من أرض مصر، ولذلك لما كلفه ربه بهذه المهمة كان رده إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون.

- ومن خلال النظر في تلكم الآيات التي تحدثت عن هذه المرحلة في حياة نبي الله موسى سنجد بأن الحديث عنها قد جاء وافياً من جوانب كثيرة، وكل سورة من السور تناولت جانباً من الأحداث وتناولته بطريقتها الخاصة، ولكن الملاحظ بأن الحديث في كل سورة يتناول جانباً من الأحداث بصورة مفصلة لا تجدها في السور

الأخرى فإذا كانت سورة القصص قد ارتكز بصورة أساسية على فترة ميلاد موسى ونشأته فإن الحديث في سورة طه قد ارتكز على لحظات المناجاة بين موسى وربه بالدرجة الأولى، ولذلك اخترنا هذه الآيات لتكون عماد حديثنا حول هذه الفترة في حياة نبي الله موسى، وما كان من إضافات من سورة أخرى فإننا سنذكره في حينه بإذن الله تعالى:

لقد بدأ الحديث عن قصة نبي الله موسى على صورة استفهام إخباري لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) فإذا كان لم يأتك فهذا جانب من خبره، ولذلك فإن الآيات بعد ذلك تنقلنا مباشرة إلى تلك اللحظة التي أخذ فيها أهله بعد أن قضى الأجل المتفق عليه مع صهره في رعي الغنم سار بأهله لعله أراد أن يعود إلى مصر مرة أخرى فلقد شده الحنين إلى الأهل والوطن على الرغم مما يحيط بهذه العودة من المخاطر مع فرعون وآل فرعون لقد سلك نفس الطريق الذي مضى فيه من قبل منذ عشر سنوات خائفاً يترقب فهو يعود في ذات الطريق مرة ثانية، ولعل هذه الرحلات المتتالية من مصر إلى أرض مدين ثم من مدين مرة أخرى إلى أرض مصر، لعل هذه الرحلات بمثابة تدريب عملي لموسى لكي يكون على دراية كاملة بكل دروب الصحراء ومسالكها فهو سيقود قومه في رحلة الخروج الكبير من أرض مصر، فأراد الحق سبحانه أن يقوم موسى بهذه الرحلة ذهاباً وإياباً استعداداً لهذه المهمة الشاقة، فعاد بأهله ووصل إلى جانب جبل الطور في أرض سيناء، وتصور الآيات بأنه حينما وصل إلى هذا الموضع ضاعت معالم الطريق بين يديه بسبب ظلمة الليل، كما نستشف ذلك من خلال تلك الآيات وبأنه قد آنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله انتظروا في هذا الموضع لعلي آتيكم بشعلة من النار أو أجد على النار هدى، أو أجد مرشداً ودليلاً أو خبراً من الممكن أن يمد إلينا يد العون في دروب تلكم الصحراء الموحشة.

ويصل موسى إلى تلك البقعة وتصف الآيات بأنها البقعة المباركة أو بورك من في النار ومن حولها، لقد وصل إلى تلك البقعة المباركة من الشجرة أو تلك البقعة التي

بورك حولها ﴿بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ لقد باركها المولى سبحانه بخطابه لموسى في رحابها فلم يجد النار التي تدفئ الأبدان أو الدليل الذي يرشدهم في دروب الصحراء بل وجد النور الذي يضيء للنفس الطريق في دروب الحياة، وكانت المفاجأة: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه:١١-١٣] يا لهول المفاجأة في وسط هذه الظلمة الشديدة وهو في طريق يسير فيه وحده باحثاً عن مرشد أو دليل يأتيه هذا النداء إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى.

أي نفس بشرية تتحمل مثل هذا النداء وفي موقف كهذا إنها نفس رباها المولى سبحانه على عينه واصطفاها لنفسه إنها نفس كنفس نبي الله موسى الذي امتن عليه ربه بالعلم والحكمة منذ فترة طويلة منذ أن بلغ أشده:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص:١٤] فلما حانت لحظة المناجاة هذه تلقي نبي الله موسى هذا النداء بقلب ثابت ونفس مطمئنة، وكانت الكلمة الأولى التي استمع إليها هذا النبي (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) يستمع إليها هذا النبي أنا ربك الذي خلقتك وأنعمت عليك نعماً لا تحصى ولا تعد، وطالما أنك في حضرة ربك فينبغي أن تخلع نعليك في حضرته فإنك بالوادى المقدس طوى، والأمر بخلع نعليه له أكثر من مغزى منها: أن يستشعر نبي الله موسى عظمة الذات الإلهية فينبغي لذلك أن يتهيأ لموقف كهذا بكل قلبه وجوانحه ومشاعره حتى بخلع نعليه من قدميه وفيها معنى آخر له صلة بطهارة القلب والنفس من كل مشاغل الحياة كتلك التي يستشفها المرء من أمره لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

فلما خلع موسى نعليه ولما ينتهي أثر المفاجأة من قلبه تأتيه المفاجأة الأخرى ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ إن القلب يكاد ينخلع من مكانه لمجرد سماع هذه الكلمة أن يقع اختيار المولى سبحانه على عبد من عباده ليكون رسوله إلى خلقه، وأن يخبره ربه بذلك اخترتك أنت ويستجمع موسى كل حواسه ومشاعره فقد وقع عليه الاختيار من

ربه سبحانه فيستمع لما يوحى إليه وما يوحيه ربه إليه، في هذه اللحظة يأتي متضمناً أصول الدعوة التي يجب على هذا النبي الإيمان بها أولاً والدعوة إليها ثانياً:

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه:١٤-١٦].

ويلخص ما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة:الاعتقاد بالوحدانية، والتوجه بالعبادة، والإيمان بالساعة ؛ وهي أسس رسالة الله الواحدة:

فأما الألوهية الواحدة فهي قوام العقيدة. والله في ندائه لموسى – عليه السلام - يؤكدها بكل المؤكدات:بالإثبات المؤكد. (إنني أنا الله)وبالقصر المستفاد من النفي والاستثناء: لا إله إلا أنا الأولى لإثبات الألوهية لله، والثانية لنفيها عمن سواه.. وعلى الألوهية تترتب العبادة ؛ والعبادة تشمل التوجه لله في كل نشاط الحياة ؛ ولكنه يخص بالذكر منها الصلاة: (وأقم الصلاة لذكري)لأن الصلاة أكمل صورة من صور العبادة، وأكمل وسيلة من وسائل الذكر، لأنها تتمحض لهذه الغاية، وتتجرد من كل الملابسات الأخرى؛ وتتهيأ فيها النفس لهذا الغرض وحده، وتتجمع للاتصال بالله.

فأما الساعة فهي الموعد المرتقب للجزاء الكامل العادل، الذي تتوجه إليه النفوس فتحسب حسابه؛ وتسير في الطريق وهي تراقب وتحاسب وتخشى الانزلاق[1].

ويتلقى نبي الله موسى هذا الأمر وهو في موقف المناجاة هذا وبعد أن أخبره ربه بأنه قد اصطفاه نبياً يسأله ربه:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه:١٧-١٨] ومع أن السؤال لم يكن عن وظيفة العصا في يده. إنما كان عن عما في يمينه. ولكنه أدرك أن ليس عن ماهيتها يسأل فهي واضحة، إنما

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب ٤/ ٢٣٣٠ط. دار الشروق بتصرف. .

عن وظيفتها معه. فأجاب موسى بما يعرفه عن تلك العصا:أن يتوكأ عليها وأن يضرب بها أوراق الشجر لتتساقط فتأكلها الغنم – وقد كان يرعى الغنم لصهره. وأن يستخدمها في أغراض أخرى من هذا القبيل أجملها ولم يعددها لأن ما ذكره نموذج منها.

ولعل موسى في موقف المناجاة هذا أراد أن يطول حواره مع ربه أطول فترة ممكنة فظل يعدد وظائف العصا ويذكر فوائدها فإن هذه من اللحظات النادرة التي قلما تتكرر في حياة البشر فأراد موسى أن تطول تلك اللحظات لأطول فترة ممكنة حتى وإن لم يجد من الحديث ما يتحدث فيه مع ربه سبحانه إلا أن يذكر فوائد العصا فليفعل.

ولقد كان هذا كل ما يدركه نبي الله موسى من وظائف هذه العصا ولكن الحق سبحانه– أراد أن يكون لهذه العصا في يد موسى شأن وأن تكون هي المعجزة التي يؤيده بها ربه ويهيئه لمواجهة طاغية عصره وجبار زمانه فرعون فقال له ربه: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾.

لقد وقعت المعجزة ودبت الحياة في العصا فإذا هي حية تسعى وتتحرك، ولم تذكر آيات سورة طه ما وقع من نبي الله موسى بعد أن انقلبت العصا إلى حية تسعى، والسياق هنا لا يذكر ما ذكره في سور أخرى من أنه ولى مدبرا ولم يعقب. إنما يكتفي بالإشارة الخفيفة إلى ما نال موسى – عليه السلام – من خوف ذلك أن ظل هذه السورة ظل أمن وطمأنينة، فلا يشوبه بحركة الفزع والجري والتولي بعيداً، أما ما وقع من نبي الله موسى عند ذلك أفصحت عنه آيات ذكرت في سور أخرى، ففي سورة القصص: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ وفي سورة النمل ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾. وبعد أن اطمأنت نفس موسى بهذا النداء الرباني لا تخف إنك من الآمنين. لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ناداه ربه –سبحانه:﴿خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ ستعود العصا إلى حالتها الأولى التي كانت عليها قبل ذلك في يد نبي الله موسى.

ومع العصا كانت معجزة أخرى وهي اليد: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى* لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ وفي الآية الأخرى ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾. ولقد تمثلت المعجزة في اليد أنه يدخلها في جيبه وهي فتحة قميصه فتخرج بيضاء من غير مرض ولا برص.

ويتلقى موسى هذه الآيات من عند ربه،ولعل السرور والرضا قد ملأ عليه جوانب قلبه فربه يخبره بأنه قد اختاره واصطفاه كذلك يتولى ربه تعليمه وتوجيهه وإرشاده ويعطيه من آياته ومعجزاته الكبرى، ولكن في موقف كهذا قد يتسائل المرء لِمَ يعطي الله نبيه موسى ذلك كله فتأتي الإجابة في الآية التالية:

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾. إن هذا الإعداد وتلكم التربية الخاصة وهذا الاصطفاء لمهمة محددة ولتكليف معين إن ذلك كله لتذهب إلى فرعون نبياً ورسولاً لأنه طغي من غير أن تتحدد الآية جانباً بعينه قد طغى فيه فرعون فلقد طغى فرعون في كل أمر، وما ترك أمراً أو جانباً من جوانب الحياة إلا وطغى فيه وبغي فجاءت هذه الكلمة إنه طغى مستوفية للمعنى.

وموسى على علم تام بفرعون فلقد عاش في قصره ورُبي في حجره فيحس بخطورة الأمر وجسامة الخطب، ولذلك توجه إلى ربه بهذا الرجاء ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي..﴾ وانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة، ويحيل عناءه لذة؛ ويجعله دافعا للحياة لا عبئا يثقل خطى الحياة، وطلبه أن ييسر له الأمر فتيسير الأمر من الله سبحانه هو ضمان النجاح فهو بقدرته يجعل الحزن سهلاً ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي* يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ وكان رجاؤه كذلك أن يحل الله عقدة لسانه، فلقد كان في لسانه حبسة فطلب من ربه أن يفك عقدة لسانه كي يفقهوا ما يقول، وأن يرسل معه أخاه هارون وزيراً، وبينت الآيات الأخرى بأن هارون كان أفصح من

موسى تتسم شخصيته بالهدوء والقدرة على الحوار الهادىء على عكس شخصية موسى، وكان فيها جانب من الحدة والانفعال، ولذلك علل موسى طلبه بأن يكون هارون وزيراً كي يشدد به أزره ويقوي به أمره، والهدف من وراء ذلك كله: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا* وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا* إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ إننا نرجو ذلك كله حتى يكون عوناً لنا على ذكرك وتسبيحك وحسن عبادتك لا شيء آخر سوى هذا.

وبعد هذا الدعاء والسؤال من موسى يأتي الرد من الحق سبحانه في عبارة واحدة: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ أوتيت سؤلك يا موسى هل هذا ما تريده لقد حققناه لك وليس هذا كل عطاء الله لموسى وإنما يذكره ربه بأن هذه ليست أول نعم الله عليه أو منته وإحسانه إليه وإنما سبقتها نعم ومنن كثيرة ويذكره ربه بما أنعم به عليه منذ ولادته ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى* إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى* أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي* إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾.

لقد ذكره ربه بهذه النعم ثم زادها بما هو أعظم منها جميعاً ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ وأي نعمة ومنة أعظم من هذه ؟ أن يصطفي الحق سبحانه عبداً من عباده وواحداً من خلقه لنفسه، وأن يختاره ليحظى بشرف الوقوف في حضرة ربه والتلقي عنه.

ولعل هذا الحوار الطويل قد أذهب الخوف والفزع والوساوس من قلب موسى فيأمره الحق –سبحانه- مرة أخرى بالذهاب إلى فرعون، وجاء الخطاب لموسى وهارون معه وكأن تكليف هارون بالذهاب مع موسى صار قدراً مقدوراً وأمراً مفروغاً منه فخوطبا معاً بالإضافة إلى ذلك فهذا جانب من أسلوب القرآن في سرده للمواقف والأحداث يختصر الكثير من المواقف تُقرأ من بين السطور ويستشفها القارئ من بين الأحداث، فلقد كان السؤال من موسى أن يكون هارون وزيراً فأعطاه ربه

ذلك، ثم تنقلنا إلى الخطاب المباشر لموسى وهارون معاً دون أن تخبرنا كيف تم تكليف نبي هارون ليكون وزيراً مع موسى، وبعد ذلك تخبرنا الآيات بجواب موسى وهارون معاً.

ولكن كيف التقى هارون بموسى وما دار بينهما من حوار كل هذا اختصرته الآيات دون إخلال بتتابع الأحداث أو بأسلوب الخطاب واستوعبت في كلمات قلائل أحداثاً عظاماً دون أن تخل بالمعنى وهذا وجه من وجوه الإعجاز في القرآن. ولقد نقلتنا إلى المشهد التالي وهارون يتلقى التكليف مع نبي الله موسى حيث خوطب موسى وهارون معاً ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ اذهبا مزودين بآياتي ومعجزاتي ومن بينها العصا واليد ولا تغفلا عن ذكري، وإنما يكون ذكري هو زادكما في هذا الموقف، وفي مواجهة هذا الطاغية ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم ؛ ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة. ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان.

اذهبا إليه غير يائسين من هدايته، راجيين أن يتذكر ويخشى. فالداعية الذي ييأس من اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها بحرارة، ولا يثبت عليها في وجه الجحود والإنكار.

وإن الله ليعلم ما يكون من فرعون. ولكن الأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لا بد منه. والله يحاسب الناس على ما يقع منهم بعد أن يقع في عالمهم. وهو عالم بأنه سيكون. فعلمه تعالى بمستقبل الحوادث كعلمه بالحاضر منها والماضي في درجة سواء.

ويأتي التكليف لموسى وهارون معاً ولكنهما يظهران الخوف من لقاء هذا الجبار ومواجهة هذا الطاغية وهذا إن دل على أمر فإنما يدل على أن بغي وظلم وجبروت فرعون قد بلغ منتهاه فهما يشكوان الأمر إلى الله معاً ﴿قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾ نخاف من بغيه وجبروته أن يداهمنا فرعون ببغيه للوهلة الأولى، أو أن يبالغ في ظلمه وطغيانه فطمأنهما الحق سبحانه ﴿قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ لا تخافا وهي من الله كانت كافية أن يقول الله لهما لا تخافا فيطمأن بعدها قلب النبيين، وزيادة في طمأنتهما وشد أزرهما: إنني معكما أسمع وأرى. وهل يحتاج موسى وهارون لشيء بعد ذلك يعينهما على مواجهة هذا الطاغية، فالله معهما يسمع ويرى، فلن يكونا في ميدان المواجهة مع الطاغية وحدهما بل معهما رب السموات والأرض خالق القوى والقدر وكانت تلك الكلمات خير الزاد والمعين لموسى وهارون فما عادت ترهبهما سطوة فرعون أو يخيفهما بغيه وظلمه وجبروته، فاتجها إلى لقاء فرعون ليخبراه بأمر الله سبحانه ويتم اللقاء وتقع المواجهة بين الحزبين والفريقين كيف تم هذا اللقاء وما الذي دار فيه من حوار هذا موضوع الحلقة التالية والدرس القادم من قصة نبي الله موسى وفرعون نتابع أحداثه وفصوله ولكن بعد وقفة قصيرة للدروس والعبر التي نستشفها مما سبق من الآيات:

دروس وعبر:

الأولى: ما هي النار التي شاهدها نبي الله موسى والتي أخبرت عنها الآيات إنها ليست ناراً أوقدها البشر وإنما هي كما قال صاحب الظلال:

إنها على الأرجح لم تكن نارا من هذه النار التي نوقدها. إنما كانت نارا مصدرها الملأ الأعلى. نارا أوقدتها الأرواح الطاهرة من ملائكة الله للهداية الكبرى. وتراءت كالنار وهذه الأرواح الطاهرة فيها. ومن ثم كان النداء: (أن بورك من في النار) إيذانا بفيض من البركة العلوية على من في النار من الملائكة ومن حولها.. وفيمن حولها موسى.. وسجل الوجود كله هذه المنحة العليا. ومضت هذه البقعة في سجل الوجود مباركة مقدسة بتجلي ذي الجلال عليها، وإذنه لها بالبركة الكبرى [1].

الثانية: خص الله نبيه موسى بكلامه مباشرة ولكن كيف تم هذا الحوار بين موسى وربه كيف تلقاه نبي الله موسى هذا أمر من عالم الغيب لا نقدر على تصوره أو

---

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب ٥/ ٢٦٢٩ط. دار الشروق.

معرفة كيفيته، كل ما أخبرتنا به الآيات بأن نبي الله موسى قد خاطبه ربه بصورة مباشرة ولكن كيف وبأي صورة وقع هذا الخطاب علم ذلك عند الله تعالى ولا مقدرة لدينا نحن البشر على معرفة كنهه أو طبيعته فنؤمن بما جاء عن الله –سبحانه– ونكل أمر حقيقته إلى الله تعالى.

الثالثة: تركز الحوار بين موسى وربه حول أمور عدة منها:

– اصطفاء المولى سبحانه لموسى عليه السلام واختياره له ليكون رسولاً من عنده.

– التأكيد من خلال الحوار على وحدانية المولى سبحانه وأنه لا إلا غيره ولا رب سواه ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولماذا جاء الأمر بمثل هذا التأكيد ففي آية يقول له فيها الحق سبحانه إني أنا ربك ويؤكد على هذا الأمر ربك أنت وفي الآية الأخرى إني أنا الله رب العالمين وفي آية غيرها إنه أنا الله العزيز الحكيم. لماذا جاء الأمر على هذا النحو مع أن نبي الله موسى موقن بأن الحق سبحانه هو الإله الواحد وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ؟ إن مرد ذلك إلى طبيعة المهمة التي سيكلف بها هذا النبي إنه مرسل من قبل ربه سبحانه لطاغية عصره وجبار زمانه (فرعون) هذا الطاغية الذي يدعي لنفسه الألوهية من دون الله تعالى ويقول للناس: أنا ربكم الأعلى فقبل أن يرسل الحق سبحانه نبيه موسى إلى هذا الطاغية، كان هذا التأكيد حتى إذا ما خاطب هذا الطاغية لم يتطرق إلى ذهنه أدنى ذرة من شك بأن هذا الطاغية مجرد عبد من عباد الله تعالى، وواحد من خلقه ليس بإله كما يدعي فرعون، أو فيه صفة من صفات الإله أو أنه يحمل صفات الآلهه كما يدعي فرعون ذلك ويحاول أن يقنع بها رعيته.

– التكليف بالقيام بالشعائر وأداء العبادات فعلاقة العبد بربه لا تتوقف على مجرد

المعرفة النظرية وإنما لابد من أداء الشعائر والمناسك على النحو الذي يأمر به الحق –سبحانه– فهي التي تهذب النفس وتربيها وتوثق علاقة العبد بربه –سبحانه–

– الإيمان بالبعث والحساب والجزاء وهي الغاية التي تحكم سلوك العبد في حياته وتضبط إيقاعات هذه الحياة حينما يضع أمر البعث والجزاء في الآخرة نصب عينيه.

الرابعة: أعطى الله نبيه موسى معجزة على صدقه وآيات بينة أنه رسول من عند الله تعالى وتمثل هذا في العصا في يد نبي الله موسى واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء، ولقد كانت هذه معجزة من عند المولى سبحانه وجاءت من جنس ما برع فيه القوم وتفوقوا فيه، فلقد كان السحر منتشراً في هذا العصر وكانت مدارس تعليم السحر في طول البلاد وعرضها، بل إن فرعون كان يُكره الناس ويجبرهم على تعلم فنون السحر، فجاءت معجزة هذا النبي فيما برع فيه القوم وتفوقوا، جاءت لتبطل كيدهم وتوجه لسلطانهم ضربة في الصميم، ولتقيم عليهم الحجة فلا يبقى لهم بعد ذلك عذر إذا ما نزل بهم العذاب.

الخامسة: لقد أعطى المولى سبحانه معجزة العصا واليد على صورة درس عملي تلقاها نبي الله موسى وكان وقعها على نفسه ما أخبر عنه الآيات حتى إذا ما اطمأنت نفسه وأيقن بأن ما وقع معجزة من عند ربه كلفه ربه بالمهمة (إذهب إلى فرعون إنه طغى).

– لما كلف نبي الله موسى بالرسالة نلمح في رده الخوف من القيام بهذه المهمة (أخاف) ومرد ذلك لأمور عدة:

الأمر الأول: معرفة نبي الله موسي بشخصية فرعون فلقد عاش في قصره وربي في حجره وعلى علم تام بما عليه فرعون من بغي وظلم وعدوان والأخطر من ذلك أن هذا الطاغية يقول للناس أنا ربكم الأعلى.

الأمر الثاني: إن للقوم ثأراً عند نبي الله موسى فلقد فرّ من مصر هارباً بعد قتله لواحد منهم ولذلك قال موسى لربه ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ ﴿رَبِّ

إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾. بل إن موسي وهارون لما كلفا بالأمر معاً بدا عليهما الخوف معاً ﴿ربنا إننا نخاف﴾.

ولكن في مقابل هذا الخوف من موسى وهارون يأتي الوعد بالأمن من الله – سبحانه– ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١]

﴿يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

وهذا درس لكل داعية لدين الله تعالى فطالما أنه موقن بأنه يسير على درب الأنبياء فلا يخف حتى ولو كان يقف في الميدان وحده، وتقف في وجهه كل قوى البغي والظلم والعدوان على وجه الأرض فكفاه معية ربه سبحانه رب السموات والأرضين وخالق القوى والقدر ومن كان معه ربه فهل يحتاج إلى قوة أخرى بعد ذلك ؟ أبداً فإن من كان معه الله سبحانه فإن معه كل شيء ومن فقد تأييد ربه سبحانه فلقد فقد كل شيء وفقد الناصر والمؤيد والمعين.

السادسة: من خلال الآيات كذلك نرى العناية التى أحاط الله بها نبيه موسى وأخاه هارون، فهو لم يكلفه بهذا الأمر ويتركه في ميدان المعركة يواجه فرعون وحده بل طمأنه وأيده وشد من أزره، فلما دعا موسى ربه أن يشرح لهذا الأمر صدره وأن ييسر له أمره وأن يفك عقدة لسانه كى يمكنه مخاطبة القوم أعطاه سؤله كله وعلاوة على ذلك طمأنه ربه بأنه لن يكون في ميدان المعركة وحده بل معه ربه يشد من أزره ويثبت قلبه ويدفع عنه بأس فرعون وبغي وظلم وجبروت هذا الطاغية، وتأمل هذه المعاني في تلكم الآيات ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

فلما خاطبه ربه بذلك اطمأنت نفسه وثبت فؤداه وذهب إلى فرعون مصر يواجهه بما يكره ويسمعه ما لا يحب غير عابيء بجبروته ولا خائف من بغيه وعدوانه فهو على يقين بأن الله معه. وهذا درس لكل داعية لدين الله تعالى بأنه ينبغي أن يستشعر

معية ربه له وحفظه ورعايته له، فلا يخاف بطش الجبارين ولا طغيان المجبرين طالما أنه يسير على درب الأنبياء.

السابعة: من خلال الآيات نرى شأن ومكانة ومنزلة نبي الله موسى عند ربه سبحانه فلقد خاطبه ربه (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) من بين ملايين البشر الذين يدبون على وجه الأرض يختار الحق –سبحانه– واحداً منهم ليكون رسوله إلى خلقه، بل خصه وحده بكلامه من بين الرسل، وهذا إن دل على أمر فإنما يدل على أن نبي الله موسى قد وصل إلى درجة من الإيمان واليقين لم يصل إليها أحد من الناس في عصره، ومن أجل ذلك اصطفاه الله سبحانه ليكون نبيه ورسوله.

الفصل الثالث:

﴿إذهب إلى فرعون إنه طغى﴾

لقد كانت لحظات المناجاة بين موسى وربه من اللحظات النادرة في تاريخ البشرية جمعاء يناجي فيها الحق سبحانه عبداً من عباده وواحداً من خلقه يناجيه بمثل هذه النداء: (إنى أنا ربك). (وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى). (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني). (اصطفيتك لنفسي). (ألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني) إنها لحظات نادرة في تاريخ البشرية أن يخاطب عبد من عباد الله بمثل هذا الخطاب، وأن تكون عناية ربه به على مثل هذا النحو.

ولكن هذا فضل من الله تعالى يمتن به على من يشاء من عباده ويخص به من يختاره من خلقه ولقد خص نبيه موسى بذلك لأمر قدره سبحانه ولمهمة تنتظر هذا النبي إن قدر الله سبحانه أن يكون موسى هو النبي المرسل إلى فرعون وإلى آل فرعون، ولذلك كان هذا الإعداد الخاص حتى إذا ما تم تكليفه بهذه المهمة كان الرجل المناسب لها والجدير بها، فإنه سيواجه أعتى طغاة عصره وجبار زمانه، فينبغي أن تكون له تربية خاصة وإعداد خاص من ربه سبحانه،ولذلك نرى الحق سبحانه بعد هذا الحوار الطويل بين موسى وربه يخاطبه وهارون معه ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾

[طه:٤٣] وهنا تبدأ هذه الحلقة في حياة هذا النبي الحلقة التي تمت فيها المواجهة بين موسى وفرعون أو بين الداعية والطاغية، وهذه الحلقة قد سجلتها سور عديدة في كتاب الله تعالى كل سورة منها تناولتها على طريقتها الخاصة على حسب سياق الآيات ومناسباً لجو السورة العام ومنسجماً مع القضايا والموضوعات التي تناولتها السورة بوجه عام فلقد جاء الحديث عنها في سورة طه والأعراف والشعراء والقصص والنمل وتنوع الحديث عن تلك الفترة في هذه السور بين الحديث الموجز الذي يذكر من الحدث أطرافه والحديث المطول والمفصل الذي يستوعب ويهتم بذكر كل تفاصيل الأحداث ولكن على الرغم من أن الأحداث جاءت في سور كثيرة فإننا نرى بأن كل سورة منها كان لها طابعها الخاص كما سنرى من خلال استعراضنا لهذه الآيات وهذا ما سنحاول بيانه ولكن بعد استعراضنا لهذه الآيات التي سنذكرها أولاً ثم نفصل القول فيها بعد ذلك:

لقد جاء الحديث عن هذه المرحلة في سورة طه: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى * وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه:٤٢-٥٨].

وفي سورة الشعراء: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء:١٥-٣٧].

وجاء الحديث في سورة الأعراف على هذا النحو:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف:١٠٤-١١٢].

وفي سورة النمل:﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

أما في سورة القصص فلقد جاء الحديث فيها عن هذه الفترة على هذا النحو:

﴿فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [القصص:٣٦].

هذه تقريباً الآيات التي تناولت لحظات المواجهة بين موسى وفرعون نفصل الحديث فيها على النحو التالي:

لقد طوت الآيات الزمان والمكان واختصرت مسافات وأحداث كثيرة بين المناجاة في المرة الأولى وبين الأمر الموجه لموسى وهارون معا وهذا أسلوب من أساليب القرآن في سرده للأحداث يترك فجوات بين المواقف المختلفة يفهمها القارئ والمتابع للأحداث من خلال سياق الآيات ومن بين السطور يعرفها وهي صورة من صور الإعجاز في القرآن، ولذلك كان خطاب الحق سبحانه لموسى وهارون معاً ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٣-٤٤] إن الآية قد ذكرت العلة من إرسال موسى إلى فرعون. إنه طغى وتترك الآية أمر الطغيان على إطلاقه من غير تحديد لمجال معين لطغيان فرعون فلقد طغى فرعون وتجاوز الحدود كلها وطغى في كل شيء، والكلمة الوحيدة التي تصور حال فرعون إنه طغى ويكفى ما فيها من دلالة على حال فرعون وما وصل إليه أمره، وللمرة الثانية يظهر نبي الله موسى وهارون الخوف من مواجهة هذا الطاغية ولقاءه: ﴿قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾ [طه:٤٥] نخاف ظلمه وطغيانه من اللحظة الأولى للقائه فإنه لبغيه وعدوانه قد لا يترك لهما فرصة للحوار أو مناقشة الأمر بروية وتدبر فالفرط وهو التسرع بالأذى للوهلة الأولى، والطغيان أشمل من التسرع وأشمل من الأذى. وفرعون الجبار يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما. فطمأنهما المولى سبحانه: ﴿قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ لاتخافا فلن تكونا في مواجهة هذا الطاغية وحدكما أو بمفردكما فإني معكما بعوني ونصري وتأييدي أسمع وأرى كل شيء، إذهبا إليه بأمر واضح ومهمة محددة: ﴿إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه:٤٧-٤٨].

لقد كان خطاب التكليف واضحاً من اللحظة الأولى فهما رسولا ربك والخطاب هنا موجه لفرعون وهما رسولا رب العالمين وهذا الأمر أكدت عليه الآيات من الوهلة الأولى أن يواجها فرعون بهذه الحقيقة التي يحاول فرعون أن يلبس الأمر فيها، وأن يغتصب حق الربوبية لنفسه، ويقول للناس أنا ربكم الأعلى، فليواجه هذا الطاغية بهذا الأمر من الوهلة الأولى، وما أقسى هذا الموقف وأصعبه على موسى وهارون أن يخاطبا فرعون بذلك وأن يواجهاه بما يكره، ولكن بعد اليقين بأن الله معهما في كل لحظة فما عادت لقوة فرعون قيمة بعد ذلك في نظرهما.

الأمر الثاني: في خطاب التكليف (أرسل معنا بني إسرائيل)ترى هل كانت رسالة موسى لفرعون وبني إسرائيل معاً أم أن مهمة نبي الله موسى أن يخلص بني إسرائيل من ظلم فرعون ولا شأن له بعد ذلك بأمر فرعون أو ببغيه وظلمه وعدوانه ،فهذا أمر لا يعني نبي الله موسى قد يبدو للوهلة الأولى بأن رسالة نبي الله موسى لاستنقاذ بني إسرائيل من ظلم فرعون وفقط،أما أمر فرعون وكفره فلا يعني موسى في شيء وهذا أمر غير صحيح،فإن مهمة نبي الله موسى هي خلاص بني إسرائيل من بغي فرعون وظلم فرعون، وهذا أمر لا يمكن تحقيقه أو الوصول إليه إلا إذا أقر فرعون بنبوة نبي الله موسى واعترف برسالته، وآمن برب موسى وحينئذ سيرضى أن يطلق مع نبي الله موسى بني إسرائيل أما ما عدا ذلك فلا. وبالإضافة إلى هذا فإن أسلوب الخطاب الذي كلف الله به موسى يوضح بأن دعوة فرعون إلى الإيمان بالله –سبحانه– كانت إحدى المهمات التي كلف بها نبي الله موسى ففي سورة النازعات { فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات:١٨-١٩] بل إن الحق –سبحانه– يأمر نبيه موسى وأخاه هارون أن يخاطبا فرعون بالقول اللين { فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} فهذا أدعى للإيمان فلو أن الهدف من رسالة نبي الله موسى كانت خلاص بني إسرائيل فقط ما كان أسلوب الخطاب بهذه الصورة وإنما كانت رسالة نبي الله موسى دعوة فرعون إلى الإيمان بالله وحده وفي الوقت ذاته خلاص بني إسرائيل من بغيه وجبروته وظلمه.

لقد كان هذا خطاب التكليف من الله لموسى وهارون وكما طوت الآيات المسافات بين تتابع الأحداث تنقلنا الآيات بعد ذلك إلى لحظة المواجهة المباشرة مع فرعون، والكلمة الأولى التي خاطب بها موسى فرعون ما سجلته لنا آيات سورة الأعراف على لسان موسى: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ* حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف:١٠٤-١٠٥] لقد حاول نبي الله موسى إقناع فرعون من البداية بأنه ما يقوله حق، وأنه لا يمكن أن يقول على ربه غير الحق فهذا أدعى لفرعون أن يصدقه.

ولكن هل صدقه فرعون في ذلك وأذعن للأمر ؟ لقد دار حوار طويل بين موسى وفرعون، ولعل الأمر كان بمثابة الصدمة بالنسبة لفرعون، فما توقع وهو من يدعي لنفسه الربوبية على الناس أن يأتيه واحد من عامة الناس فيواجهه بذلك، بل الأدهى أن يتم ذلك على لسان واحد من بني إسرائيل، خاصة وهم في نظر فرعون مجموعة من العبيد والرعاع، يأتيه هذا الرسول: ويقول له إنا رسول ربك، أو إنا رسول رب العالمين ومن الذي يقول له ذلك إنه موسى الذى رباه فرعون في حجره وغذاه بنفسه وعامله كولده، ولذلك كانت أول كلمة رد بها فرعون على موسى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ* وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء:١٨-١٩] ويعجب فرعون وهو يرى موسى يواجهه بهذه الدعوى (إنا رسول رب العالمين) ويطلب إليه ذلك الطلب الضخم (أن أرسل معنا بني إسرائيل). فإن آخر عهده بموسى أنه كان ربيبا في قصره منذ أن التقطوا تابوته. وأنه هرب بعد قتله للقبطي الذي وجده يتعارك مع الإسرائيلي. وقيل:إن هذا القبطي كان من حاشية فرعون. فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى الضخمة التي يواجهه بها بعد عشر سنين ! ومن ثم بدأ فرعون متهكما مستهزئا مستعجبا: ألم نربك فينا وليداً ؟!!

يقول هذا القول ساخراً من موسى ومستهزءاً به ومستخفاً بأمره، وكأنه وقد نظر إلى موسى باحتقار ويعامله بازدراء ويقول له: من أنت ؟ ألست موسى الذي ربيانه

صغيراً ؟ أنسيت تربيتنا لنا ورعايتنا لك وتفضلنا وكرمنا عليك، وقد عشت في كنفنا سنين طوال، نشأت في قصري وربيتك في حجري، وغذوتك بنفسي من أنت ؟!! ألست أنت موسى هذا الطفل الصغير الذي حملناه وأرضعناه أنسيت هذه الأيام ؟ !! وليتك مع ذلك حفظت الجميل وصنت المعروف وإنما عضضت اليد التي أطعمتك وجحدت نعمتنا عليك وفضلنا وإحساننا إليك بل فعلت فعلتك التي فعلت وهي قتله للقبطي .(. فعلتك البشعة الشنيعة التي لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة ! فعلتها (وأنت من الكافرين) برب العالمين الذي تقول به اليوم، فإنك لم تكن وقتها تتحدث عن رب العالمين أو أنت من الكافرين بنعمتنا والجاحدين لها والمنكرين لفضلنا وإحساننا عليك.

فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا وأنت وليد ؟ أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة ؟ ولتخرج على الملك الذي نشأت في بيته، وتدعو إلى إله غيره ؟!

ويظن فرعون أنه قد واجه نبي الله موسى بما يفحمه، وأن موسى لن يمكنه الرد بعد ذلك، خاصة وأنه قد ذكره بجريمته ولوح بأنه من الممكن أن يعاقب على ذلك بالقصاص منه فالأولى له أن ينجو بنفسه من بين يدي فرعون.

ولكن موسى يرد رد الواثق بنفسه المطمئن إلى تأييد ربه فلقد استجاب له ربه فانحلت عقدة لسانه، فهو يجيب بطلاقة وفصاحة منقطعة النظير: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ* فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ* وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:٢٠-٢٢].

وكأنه يقول لهذا الطاغية أما عن فعلتى التي تهددنى بها فلقد فعلتها وأنا جاهل أندفع اندفاع العصبية الجاهلية لقومي لا اندفاع العقيدة التي آمنت بها اليوم، فلما وقع منى ما وقع فررت منكم خوفاً على نفسي فكان أن أكرمنى ربي سبحانه فوهب لي حكماً واختارني لكي أكون رسولاً من عنده.

أما عن منتك علي بتربيتك لي في صغري فإنك قد تجاهلت السبب الذي أدى إلى ذلك ألا وهو استعبادك لبني إسرائيل وإذلالك لقومي وعشيرتي، ولولا ذلك ما اضطرت أمي لأن تلقي بي في اليم فنشأت في حجرك وربيت في قصرك. فهل هذه منتك التي تختال بها علي.

فلما قال له موسى ذلك كان سؤال فرعون عن ماهية رب العالمين الذي يدعي موسى بأنه رسول من قبله ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ والسؤال يحمل في طياته ومضمونه الاستخفاف بإله موسى وبما يدعوه إليه فكان رد موسى عليه السلام رد من أفحمه وأبهته: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ إنه رب السماوات والأرض وما بينهما الخالق لهما والمتصرف في الملكوت فيهما فآمنوا وصدقوا بما جئتكم به.

ولقد كانت كلمة موسى لطمة وصفعة في وجه فرعون لا يجد لها رداً، ولا يستطيع معها جواباً، فإن فرعون إذا كان قد اغتصب لنفسه حق الربوبية،وقال للناس: أنا ربكم الأعلى، فالكل على يقين بأنه هيمنته وسلطانه لا تتعدى تلك القطعة الصغيرة من الأرض أرض مصر، والكل على يقين كذلك بأن سلطان فرعون لا يتجاوزها، وهذا لا يساوي هباءة في ملك الله سبحانه، ولذلك كان رد موسى عليه السلام رد المستصغر لملك فرعون المحتقر لأمره، فيخبر فرعون بأن ربه الذي يعبده هو رب السماوات والأرض وما بينهما فهو خالقهما ومدبر شؤون هذا الملكوت كله وما بينهما فإن كنتم من الموقنين بذلك فآمنوا به ولا تعبدوا رباً سواه.

لقد أحس فرعون بأن الأرض تميد من تحت قدميه أمام حجة موسى الدامغة وآياته البينة فهو يستنجد بمن حوله: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ ألا تستمعون إلى مثل هذا القول ما رأيكم فيما يقوله موسى !! فينتهز نبي الله موسى الفرصة وقد أصغى القوم آذانهم فيوجه إليهم الحديث ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ إن ربي الذي أعبده هو ربكم كذلك ورب آباءكم الأولين وهذه أشد مساسا بفرعون ودعواه وأوضاعه فهو يجبهه بأن رب العالمين هو ربه، فما هو إلا واحد من عبيده. لا إله كما يدعي بين

قومه ! وهو رب قومه كذلك، فليس فرعون ربهم كما يزعم عليهم ! وهو رب آبائهم الأولين. فالوراثة التي تقوم عليها ألوهية فرعون دعوى باطلة. فما كان من قبل إلا الله ربا للعالمين !

فلما خاطبهم موسى بذلك أسقط في يد فرعون وازداد حنقه وغيظه فحجة موسى وآياته الواضحة تكاد أن تفقد فرعون عرشه، بل تكاد أن تُفقده مكانته التي رسمها بالباطل بين الملأ من حوله، فيكون رده ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ يقولها فرعون ويرمي من ورائها تشويه صورة هذا النبي حينما يرميه بالجنون فحديث موسى حديث مجانين، والمجنون لا يصدق الناس له قولاً، حتى ولو كان كلامه كلام الحكماء، ومن جانب آخر يظهر فرعون نفسه بأنه خارج الأمر برمته، فإذا كان موسى قد أرسل فأرسل إليكم أنتم ففرعون يخرج نفسه من الأمر برمته فهو يضع نفسه في مرتبة الإله المعبود، ومثله لا يعقل أن يرسل إليه واحد من الناس.

أو إن صنيع موسى حينما يأتي إلى فرعون بهذه الصورة صنيع مجانين فقدوا عقولهم وألقوا بأنفسهم إلى التهلكة، ولا يقدرون عواقب الأمور فهو لا يعلم من هو فرعون وما يملكه فرعون من قدرة على البطش والإيذاء.

ولكن هذا التهكم والقذف بالبهتان لم يفت في عضد نبي الله موسى فمضى في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تفت في أعضاضهم وتزلزل عروشهم قال:رب المشرق والمغرب وما بينهما. إن كنتم تعقلون).

يتحدى بها موسى فرعون وملأه فربه رب المشرق والمغرب فهو المتصرف في حركة الكون وشروق الكواكب وغروبها بيده وحده وهو أمر لا يجرؤ فرعون ومن حوله على إنكاره أو أن ينسبه لنفسه.

ويفقد فرعون صوابه فكلمات نبي الله موسى توقظ المشاعر وتحرك والأحاسيس وحديثه يرفع الغشاوة عن القلوب، فلقد طالبهم أن يتفكروا بعقولهم، وأن يتأملوا في حقيقة الأمر فهي الكفيلة بأن ترفع الغشاوة عن أعينهم، ولو تدبروا في حقيقة الأمر لأيقنوا بأن فرعون مجرد شخص مثلهم لا يملك من أمرهم شيئاً، وهذا ما يخشاه

الطاغية أن تدرك الجموع بأن أمره قائم على الكذب والتضليل والخداع، ولذلك نراه هنا يهدد ويتوعد نبي الله موسى بالويل والثبور وعظائم الأمور ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ هذه هي الحجة التي يملكها فرعون، والبرهان الذي يجادل به من يخالفه الرأي أو ينازعه الأمر: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين، وكلمات الطاغية تنبئ بأن هذا هو أسلوبه المتبع مع كل من يخالفه رأيه، أو يتمرد على عبوديته والخضوع له، فلقد قال لموسى لأجعلنك من المسجونين ومن حرف جر يفيد التبعيض فمعنى ذلك: أن خلف جدران السجون مساجين لا حصر لها، وموسى سيكون واحداً منهم، لو تمرد على عبودية فرعون واتخذ لنفسه إلهاً غيره.

ولكن هذه التهديد لم يرعب نبي الله موسى، أو يدخل الخوف على قلبه كيف وقد طمأنه ربه (إنني معكما أسمع وأرى) فكان رده على فرعون ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ أولو جئتك بحجة واضحة ومعجزة بينة هل تقدر على سجني أيضاً، وكانت كلمات موسى تحدياً لفرعون، فإما أن يرفض فرعون هذا التحدي ويصر على موقفه، فيظهر في صورة الخائف من التحدي العاجز عن المواجهة، أو أن يقبل هذا التحدي ولكن لا يضمن عواقبه فقبله على مضض، وهو يشكك في مصداقية نبي الله موسى قال: ﴿فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إئت بحجتك وأظهر برهانك إن كنت صادقاً في ادعائك هذا.

وهنا يظهر موسى معجزة ربه له والتي أخّرها لآخر لحظة وبعد أن بلغ التحدي بينه وبين الطاغية أقصاه:﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ* وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

لقد ألقى موسى عصاه فتحولت العصا إلى ثعبان واضح للناظرين أنها ثعبان فعلاً، وأخرج يده من جيبه فإذ هي بيضاء للناظرين إنهم ينظرون إليها فيجدونها بيضاء من غير علة أو مرض، لقد انقلبت العصا إلى ثعبان حقيقي وصارت يد موسى بيضاء فعلاً، وما كان هذا الصنيع من قبيل السحر الذي يخدع فيه السحرة الناظرين إليهم، وأيقن فرعون بأنه أمام معجزة ربانية لا يمكنه جحودها، أو يقدر

على التكذيب بها، فهي معجزة واضحة بينة، ولكن أنى لمثله أن يؤمن بالمعجزات وهو من امتلأ قلبه كبراً وغروراً فجحد بهذه الآيات، ولكن لو كذب بها صراحة لظهر أمام الحاضرين كذبه الواضح فما كان منه، إلا أن رد على هذه المعجزة بقوله ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

لقد كان هذا رده على تلك المعجزة إن هذا لساحر، ولكنه ساحر عليم ساحر متمرس في فنون السحر فلذلك أتى سحره بهذه البراعة التي تشاهدونها، ثم لجأ إلى الحاشية من حوله يحرضها على موسى، ويصور لهم بأن موسى لا يصنع هذا إلا لأنه طامع في الحكم، حريص على الاستيلاء على مقاليد الأمر فقال ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾

إن موسى يريد الاستيلاء على بلادكم والسيطرة على مقاليد الأمر عندكم فماذا تأمرون ؟ ومتى كان للحاشية أمر أو نهي مع هذا الطاغية !! ولكنه المكر والدهاء من فرعون قد بلغ منتهاه فهو يظهر نفسه في هذا الموقف بمظهر الحريص على مصالح القوم ومكتسبات الأمة فهو يطلب منهم المشورة والنصح وهو على أتم الاستعداد أن ينفذ الأمر الذي يشيرون به.

ويصدق الملأ فعلاً بأن لهم في هذا الأمر رأي فيدلون برأيهم في الأمر فقالوا: ﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ* يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦-٣٧] قالوا أمهله وأخاه ولا تقض الآن فيه بحكم، وابعث في طول البلاد وعرضها لمن يأتي إليك بالسحرة المهرة، فإذا كان موسى ساحراً كما ترى فإن عندنا أساتذة السحر ومعلميه فأت بهم ليقارعوه فإذا ما تغلبوا عليه تأكدنا بأنه دعي كذاب.

ولعل فرعون قد قبل هذا على مضض وكراهية منه، فلعله كان يود من الملأ حوله أن يشيروا برأي آخر يكون فيه القضاء التام على موسى، فهو لا يضمن نتائج المباراة، ولكن طالما أنه قد لجأ إلى الملأ من حوله فليرض بحكمهم وينزل على رأيهم.

لقد تأجل البت في هذا القضية والفصل فيها حتى مجئ السحرة، وبهذا يسدل الستار على مشهد المواجهة بين الداعية والطاغية بلا حسم في القضية ولكن إلى حين.

لقد كان هذا مضمون الحوار الذي تم بين موسى وفرعون كما جاءت به آيات سورة الشعراء، ولقد استوعبت هذه الآيات معظم الحوار الذي دار بين موسى وفرعون، فهل معنى ذلك بأن ما ذكر في السور الأخرى يعد تكراراً لا فائدة من ذكره أو حشواً في القصة من الممكن الاستغناء عنه هل من الممكن أن يكون الأمر هكذا ؟

لا يمكن ذلك أبداً فإن كل سورة من السور قد أضافت إلى الحدث إضافة تفردت بها ولم تذكر في بقية السور فإذا كانت سورة الشعراء قد استوعبت معظم هذا الحوار، ولكن بقية السور أضافت إلى الأحداث أموراً عدة منها:

فسورة الأعراف بينت أن موسى قد واجه فرعون بأنه رسول من عند ربه وأنه ما جاء به هو الحق وأنه لا ينبغي أن يقول إلا الحق.

أضافت أيضاً بأن اتهام موسى بأنه ساحر ما كان رأي فرعون وحده، وإنما هذا الرأي شاركه فيه الملأ من حوله، والملأ:كبراء القوم ووجهاؤهم، فلقد اتهموا موسى بأنه ساحر كذلك.

وكأن كلاً منهما يخاف على امتيازاته ومغانمه فهو يسوق الاتهام لموسى جزافاً، وهم على يقين من كذب هذا الادعاء، وعلى يقين كذلك من صدق نبي الله موسى فيما جاء به، وهذا ما بينته لنا آيات سورة النمل وما أضافته للأحداث: ﴿فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ* وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٣-١٤] فلقد بينت بأن السبب في عدم إيمانهم بما جاء موسى ليس إلا الكبر والبغي والظلم والعدوان، وإلا فإن

قناعتهم بصدق ما جاء به موسى قد وصلت إلى درجة اليقين[١]، ومع ذلك لم يذعنوا لما جاء به موسى بل إنهم استخفوا به وسخروا منه وصوروا الأمر وكأنه مسرحية يضحكون من متابعة فصولها مع أن الآيات التي جاء بها نبي الله موسى ومعجزاته كانت عظيمة، وهذا ما بينته سورة الزخرف ﴿فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ* وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف:٤٧-٤٨].

أما آيات سورة طه فلقد أضافت إلى هذا الموقف: أن الله قد وصى موسى وهارون بأن يكون حديثهما مع فرعون بالكلام اللين والعبارات الرقيقة بلا غلظة في القول ولا فظاظة في الحديث لعل هذا القول اللين يؤثر في قلب الطاغية فيتذكر أو يخشي.

أضافت كذلك جانباً من الحوار تمثلت في إجابة موسى عن ربه بأنه هو الذي وهب الحياة لكل من يدب على الأرض ثم هداه إلى سبيل عيشه. نجد فيها كذلك سؤال فرعون عن الأمم الماضية ما مصيرها ويخبره موسى بأن أمرها في كتاب عند الله سبحانه لا يضيع من أمرها شيء.

ومما أضافته كذلك أن القوم تحدوا موسى وأنه ما جاء بهذا الأمر إلا لأنه طامع في الحكم يريد الاستيلاء على مقدرات البلاد، وما هو إلا مجرد ساحر وتحدوه بأنهم سيأتون بسحر مثله وطالبوه بتحديد الزمان والمكان للمعركة الفاصلة بينهما، فحدد لهم نبي الله موسى الزمان يوم عيدهم وأن يجمع له الناس في ساعة الضحى.

وبعد:فلقد تظاهرت السور المتعددة على رسم صورة متكاملة للأحداث وكما بيّنا ينتهي هذا المشهد بقبول نبي الله موسى للتحدى ويحدد لهم موعداً يوم عيد من أعيادهم ماذا فعل فرعون وكيف جمع حشوده من السحرة هذا ما نتابعه في الفصل

١- اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم. مفردات ألفاظ القرآن (نسخة محققة) للراغب الأصفهاني٢ /٢٨٣ ط دار القلم دمشق

القادم بإذن الله –تعالى– ولكن بعد وقفة للدروس المستفادة من هذا الفصل:

دروس وعبر:

– في هذه الآيات دروس وعبر كثيرة منها:

الأولى: لقد خاطب الله موسى وهارون أن يكون حوارهما مع فرعون قولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى. مع أن فرعون ينازع المولى سبحانه في ألوهيته ويخاصمه في ربوبيته ويقول للناس: ما علمت لكم من إله غيري. ويقول لهم أنا ربكم الأعلى، ومع شدة بغيه وظلمه وعدوانه كانت وصية الله لموسى وهارون قولا له قولاً ليناً فإن القول اللين يفتح مغاليق القلوب وتنشرح له الصدور وتطمئن إليه النفوس ويطفئ نار العداوة وهذا درس للدعاة لدين الله أن خطابهم للمدعوين على مثل هذا النحو بالأسلوب الهادئ والكلام اللين والحوار المثمر بلا غلظة ولا فظاظة وصدق الحق سبحانه ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

الثانية: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧] هذه هي الفرية التي واجه موسى فرعون مع يقينه بصدق موسى فهو يرميه بالجنون، والقرآن يخبرنا بأن هذا الأمر كان قاسماً مشتركاً بين الأمم المكذبة لأنبيائها جميعاً فلقد رمي بها نوح من قبل حيث يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر:٩] ومشركوا قريش رمت بها رسول الله كذباً وبهتاناً وسجلت آيات عديدة ذلك حيث يقول سبحانه:

﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦].

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم:٥١]﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٦].

ولذلك نرى بأن هذا الاتهام ما خلت منه أمة مكذِّبة وما نجا منه نبي مرسل حيث يقول سبحانه: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ* أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣] فما بعث نبي وما

أرسل رسول، إلا وكانت هذه الفرية في انتظاره (ساحر أو مجنون أتواصوا به) هل وصى بعضهم بعضاً أن يقولوا ذلك لم يحدث، ولكنهم الطغيان والبغي والظلم والعدوان هو الذي يملي على المكذبين أن يصفوا أنبياء الله وصفوة خلق الله بهذه الأوصاف المشينة، فهذا هو منهج الطغاة الذين لا يحسنون سواه، فهم لا يقارعون الحجة بالحجة، أو الدليل بالدليل، فهم على يقين بأنه حجتهم واهية أوهي من بيت العنكبوت، فلا يجدون سبيلاً لمواجهة الأنبياء والدعاة لدين الله تعالى إلا أن يعملوا جاهدين على تشويه صورتهم، وإظهارهم أمام العامة من الناس بصورة المجانين، وهو اتهام يدل على شدة الخبث والمكر والدهاء، فيكفي أن يصور النبي للعامة على أنه شخص مجنون، فهذا كفيل بأن يصرف الناس عن حديثه، ويبعدهم عنه فإن الجنون من الصفات المنفرة التي تجعل الناس تتحاشي صاحبه وتبتعد عنه، بالإضافة إلى ذلك فلن يسمعوا له حديثاً، أو يصدقوا له قولاً، فلقد صارت عند المخاطبين قناعة بأن حديث هذا الشخص حديث مجانين وهذه هي التي يريد الطغاة الوصول إليها، أن يحولوا بين الدعاة لدين الله وبين العامة من الناس بمثل هذه الافتراءات، فيشوهوا بها صورتهم ويحقروا بها شأنهم حتى ينفض الناس عنهم.

الثالثة:لم يكتف فرعون بنعت موسى بالجنون، وإنما يعمل جاهداً على أن يظهر نبي الله موسى بمظهر المتكالب على الدنيا، الطامع فيما تحت يدى فرعون، فيشترك والملأ من حوله ومعهم السحرة –قبل إسلامهم – كلهم اتفقوا على هذا الأمر:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء:٣٤_٣٥].

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ* يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠].

﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه:٦٣].

لم يكتف فرعون والملأ من حوله بما أقدموا عليه من وصفهم لهذا الداعية بأنه مجنون وإنما حاربوه من زاوية أخرى ألا وهي أنهم قد عملوا جاهدين على أن إظهاره بمظهر الطامع فيما تحت أيديهم، فما هو بصاحب رسالة أو دعوة كما يدعي، وإنما هو مجرد شخص ذو مطامع مادية بحتة، وطموحات دنيوية يريد الوصول إليها واتخذ من هذا الدين الذي يدعوهم إليه اتخذ منه وسيلة لتحقيق هدفه والوصول إلى ما يريد.

ومن جانب آخر يحرضون عليه العامة ويؤلبونهم عليه ويخوفونهم منه (يريد أن يخرجكم من أرضكم) إنه يريد الاستيلاء على ما تحت أيديكم ونزعه منكم وهم على قناعة تامة بأن الجماهير الغافلة ستثور في وجه هذا الداعية حينما يصور لهم الأمر بهذه الصورة.

لماذا يصنعون ذلك مع يقينهم من صدق نبي الله موسى وكذب هذا الافتراء ؟

إن مرد ذلك لأسباب كثيرة منها:

– البغي والظلم والعدوان والكبر الذي ملأ قلوبهم حال بينهم وبين الإيمان بهذا النبي خاصة إذا كان هذا النبي فرداً من بني إسرائيل.

– الحرص على المغانم والامتيازات التي يستمتع بها فرعون والملأ من حوله والتي استولوا عليها بغياً وظلماً وعدواناً باسم الدين الذي يطالبون العامة بالخضوع له والإذعان والتصديق به ألا وهو الإذعان لفرعون الإله، فلو أنهم يصدقون بما جاء به موسى لفقدوا ذلك كله.

– العمل على إثارة مشاعر الغضب والكراهية في نفوس الجماهير والعامة ضد نبي الله موسى وأخيه حينما يظهرون لهم بأن دعوة الرجلين هدفها وغرضها الاستيلاء على ما تحت أيديكم ونزعه منكم فيزداد حنق العامة ويزداد غيظهم حينما يصور لهم الأمر على النحو.

* * *

الفصل الرابع: ما جئتم به السحر إن الله سيبطله

هذه هي الحلقة التالية من حلقات الصراع بين موسى وفرعون، أو بين الداعية والطاغية، لقد انتهت الجولة السابقة بإظهار موسى لمعجزة ربه وإدعاء فرعون والملأ من حوله بأن موسى ليس إلا مجرد ساحر، ولكنه ساحر عليم، وتحدوه بالمعركة الفاصلة بينه وبين السحرة، ويطالبونه بأن يختار لهم موعداً لهذه المباراة الفاصلة، ويقبل نبي الله موسى التحدي ويحدد لهم موعد هذه المباراة أن يكون يوم الزينة يوم عيد من أعيادهم، وأن تكون المباراة في ساعة الضحى، ويؤجل الحكم والقضاء في شأن موسى وهارون إلى أن يتم حشد السحرة وجمعهم من شتى أرجاء البلاد ويتم استدعاء السحرة ويحشد فرعون كل قوة ممكنة لديه من أجل هذه المواجهة. هذه المرحلة في الصراع بين الفريقين جاء الحديث عنها في مواضع مختلفة من القرآن نذكرها أولاً ثم بعد ذلك نأتي إلى بيان تتابع المواقف والأحداث، لقد جاء الحديث عن هذه اللحظات في سورة الشعراء على هذا النحو:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ* يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ* فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ* وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ* لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ* فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ* قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ* قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ* فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ* فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ* فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ* قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ* رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ* قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ* لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ* قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ* إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣٦-٥١].

أما في سورة طه فلقد تحدثت عن هذا الموقف على النحو التالي:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٥٦-٧٣].

وفي سورة الأعراف:

﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْوَاْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا

لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١٢٦].

لقد انتهى اللقاء الأول بين موسى وفرعون بإعلان التحدي من جانب موسى وتأجيل البت في أمره إلى ما بعد المعركة الفاصلة، فإذا كان موسى يتحداهم بالعصا في يده تنقلب إلى حية تسعى فنظروا إلى صنيعه هذا على أنه نوع من السحر، كذلك حرصوا أن يظهروه للعامة على أنه مجرد شخص طامع في الحكم يريد الوصول إلى كرسي العرش، ويتخذ من دعوته هذه ستاراً يخفى من ورائها مآربه ومطامعه الشخصية، فقالوا له أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى، حدد لنفسك موعداً للمعركة الفاصلة نتفق عليه نحن الاثنين ولا يتخلف عنه أحد منا، قال موعدكم يوم الزينة، لقد اختار لهم موسى موعداً في يوم عيد من أعيادهم يتزين فيه الناس ويتجملون وأن يجمع الناس ساعة الضحى.

إنه الحق الذي جاء به موسى يريد أن يطلع عليه أكبر عدد من الناس وهذا لن يتم إلا إذا كان في عيد يجتمع فيه عامة أفراد الشعب، ويختار لهم أكثر ساعات اليوم نوراً وضياء ساعة الضحى فليس عند صاحب الحق والعقيدة الصحيحة ما يخفيه أو يخشى اطلاع الناس عليه، فكان اختيار موسى لهذه الموعد عن قصد وعمد.

حدد لهم موسى هذا الموعد فأرسل فرعون في المدائن من يأتي إليه بالسحرة ويجمعهم من طول البلاد وعرضها، اجتمع السحرة وكان لهم قبل المباراة لقاء مع فرعون، ولهم مع موسى لقاء كذلك:

أما لقاؤهم مع فرعون فلقد كان لقاء يغلب عليه طابع النفاق والكذب والخداع من الطرفين، ففرعون يحذرهم من موسى، ويصوره لهم بأنه الخطر الداهم الذي

يهدد البلاد والعباد فينبغي عليهم أن يبذلوا أقصى ما لديهم من قدرة وقوة لتلافيه والتغلب عليه، وحماية البلاد من شره وكيده.

والسحرة من جانبهم جاؤوا طامعين فيما تحت يدي فرعون من المغانم والخيرات، وهم في هذا الموقف طلاب دنيا، كل همهم أن يفوزوا بأكبر قدر من المكاسب والمغانم، فهم ينتهزون الفرصة، ويشعرون بأن فرعون في حاجة إلى خبراتهم، فيطلبون منه ما يريدون، والكل قد جمعتهم المطامع في الحياة الدنيا، فكان قولهم أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين، ويعدهم فرعون بأن لهم الأجر وما هو أكبر وأغلى قيمة من الأجر، ألا وهو أنهم سيكونون من حاشية فرعون وبطانته والمقربين إلى عرشه، ويتخذ منهم وزراءه ومستشاريه، لو أنهم تمكنوا من هزيمة موسى في هذا اللقاء، وهذه الكلمات من فرعون توحي بخوفه الشديد من موسى، وضعف موقفه في مواجهة هذا النبي ولذلك يستعين بالسحرة ويعدهم بما يعدهم به.

أما لقاء السحرة مع نبي الله موسى فكان يغلب عليه الجد والصرامة والوضوح، واجههم فيه موسى بما يبكتهم ويفت في أعضاضهم، ويفرق كلمتهم، وكان مما قاله لهم ما جئتم به السحر إن الله سيبطله. ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى

لقد أصابت كلمات نبي الله موسى من قلوب السحرة موقعاً، وكانت سبباً في اختلاف آرائهم، والتنازع فيما بينهم، وتهامسوا سراً فيما بينهم، ولعلهم رأوا بأن موسى على صواب، وأنهم على خطأ، وأنهم من الممكن أن يُهزموا في هذا اللقاء، ولعلهم هموا بالتراجع، ولكن كلمات فرعون والرأي العام الذي صنعه فرعون حول موسى وأخيه بأنهم الخطر الداهم الذي يهدد أمن البلاد والعباد كل ذلك جعلهم يصرون على باطلهم فصوروا الأمر لأنفسهم على أنهم حماة أمن البلاد والمدافعون عنه في مواجهة موسى وأخيه: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه:٦٣-٦٤]

وانظر إلى هذا الافتراء والتدليس في كلماتهم، لقد اتهموا نبي الله موسى وأخاه هارون بأنهما مجرد ساحران كل هدفهم زعزعة استقرار البلاد والوصول إلى كرسي الحكم، وأنهما كذلك يريدان القضاء على الطريقة المثالية في تسيير الأمور ألا وهي ما يأتي به السحرة وما يقومون به، وكأن السيطرة على شؤون البلاد عن طريق الخداع والسحر والشعوذة هي الطريقة المثالية، وموسى يريد القضاء عليها بما أتى به.

ويحشد فرعون الجموع لمشاهدة هذا المعركة ويحرضهم على نبي الله موسى، يجمعهم وكله إصرار على موقفه مهما أسفرت عنها من النتائج، لقد جمع الجموع وحشد الحشود، وقال لهم: هلموا فاجتمعوا لمشاهدة هذا اللقاء الحاسم، وكان إصراره على باطله من الوهلة الأولى، فلقد كانت كلمته: هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، لقد بينت هذه الكلمات بأن فرعون قد أصدر الحكم في القضية قبل أن تبدأ المباراة فإنه لم يقل: لعلنا نتبع الحق أينما ظهر ومع أي فريق كان، بل قال: لعلنا نتبع السحرة فلو كانت الغلبة لهم اتبعناهم، ولكن لو أن الحق مع موسى فإن في القضية رأي آخر لماذا ؟

إن القضية محسومة من اللحظة الأولى في نظر هذا الطاغية، ففرعون على يقين بأن موسى على حق وصواب، وما كان في حاجة إلى معاونة من السحرة للوصول إلى الحقيقة والتصديق بها، ولكنه ظن بأنه من الممكن أن يتغلب على نبي الله موسى عن طريق سحرته ومشعوذيه، أو أن يجعل للباطل من خلال الإعلام المضلل والصوت العالي أن يجعل له الغلبة من خلال ذلك كله، ويضيع صوت الحق في وسط هذا الصخب والضجيج.

ومن جانب آخر إنه الكبر الذي ملأ قلب هذا الطاغية فاستنكف الخضوع للحق والإذعان له والتصديق به طالما أن هذا الحق قد جاء على لسان واحد كموسى. فكان حشده للجموع وإعلانه فيهم أن هلموا واجتمعوا لعنا نتبع السحرة، ولكنه ما كان على ثقة من نجاحهم في أداء مهمتهم التي أوكلت إليهم فقال، إن كانوا هم

الغالبين فأسلوبه هذا يوحي بأنه ما كان على ثقة تامة في نجاح السحرة في مواجهة هذا النبي.

لقد حشدت الجماهير وجاءت الجموع من شتى الأرجاء لمشاهدة هذه المعركة الفاصلة، ويقف نبي الله موسى في مواجهة السحرة، وأمام هذه الحشود يقف فرعون وجنوده والسحرة والملأ من آل فرعون في جبهة وموسى وهارون في الجبهة الأخرى، وتبدأ الجولة الأولى:

(يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى) كانت هذه كلمة السحرة لموسى: من يبدأ الجولة الأولى نحن أم أنت يا موسى فكان رد موسى بل ألقوا يقولها لهم بلا مبالاة بل ألقوا، ويستجمع السحرة كل ما لديهم من قوة ويبذلون أقصى ما عندهم من جهد، فإن المعركة حاسمة ونتائجها وعواقبها من الممكن أن تؤثر على الكثير من مجريات الأحداث في مصر بأكملها، بل في العالم بأسره، ولذلك استجمع السحرة كل ما لديهم من قوة وألقوا بحبالهم وعصيهم وجاءوا بسحر عظيم.

ولكن ما الذي جاؤا به هل جاؤا بأمر حقيقي هل يمكنهم أن يقدموا لهذه الجماهير المحتشدة أمراً حقيقاً، أو شيئاً مادياً ملموساً، لم يقدموا من ذلك شيئاً، بل إن أمرهم كما قال الحق سبحانه: {سحروا أعين الناس واسترهبوهم} إن أمرهم كله قائم على التدليس والغش والتمويه والخداع، إن سحرهم لم يغير شيئاً عن طبيعته ولم يبدل حقيقة المحسوسات، كل ما صنعوه أنهم سحروا الأعين وخدعوها بحركاتهم هذه، وبالإضافة إلى ذلك لقد ألقوا بالرهبة والفزع في قلوب العامة، فظن الجميع بأن هذا الباطل الذي جاء به السحرة هو عين الحق، بل إنهم من شدة براعتهم، أثروا على مشاعر نبي الله موسى وأحاسيسه حتى خيل إليه هو الآخر بأن عصى السحرة وحبالهم حية تسعى.

لقد جاء السحرة بسحر عظيم، ويكفي وصف القرآن هذا ليؤكد بأن السحرة قد بذلوا أقصى ما لديهم من جهد، واستفرغوا كل ما عندهم من طاقة، ووضعوا كل

خبراتهم في هذه المعركة الفاصلة، فهي بالنسبة لهم معركة مصيرية، وستغير نتائجها الكثير من المواقف، وستؤثر في مجريات الأحداث.

لقد قام السحرة بالجولة الأولى وبدؤوها بالقسم بعزة فرعون أنهم هم الغالبون وقاموا بما قاموا به واستطاعوا خداع الجماهير وسحروا أعينها، بل إنهم لبراعتهم سحروا عين موسى كذلك، وعند هذه اللحظة تسلل الخوف إلى قلب نبي الله موسى، وللحظة يظن بأنه من الممكن أن يتغلب عليه السحرة بما جاؤا به، وأنه من الممكن أن يتغلب زيف باطلهم على الحق الذي جاء به، ولكن الحق سبحانه وقد وعده وأخاه من قبل لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى، فيدركه ربه في هذا الموقف، لا تخف إنك أنت الأعلى، فأنت على الحق وهم على الباطل، ومن كان على الحق فهو الأعلى، حتى ولو كان يقف في ميدان المعركة وحيداً، فلا ينبغي أن يخاف ولو للحظة وألق ما في يمينك فإن فيها المعجزة ألقها تلقف ما صنعوا وما صنعوه مجرد وهم لا حقيقة له إنما صنعوا كيد الساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى.

ويلقي موسى عصاه فتتلقف الحبال والعصي ولا تترك لها أثراً، ماذا حدث ؟ وما الذي يراه السحرة بأم أعينهم ؟ أين الحبال والعصي ؟ لقد توارت جميعاً في جوف العصا ما هذا ؟ هل هذا بسحر ؟ لو أن ما جاء به موسى سحراً لكان من الممكن أن يخدعهم بمنظر العصا وهي تبتلع حبالهم ثم بعد أن يزول أثر السحر يجدون حبالهم وعصيهم أمام أعينهم، ولكن هذا لم يحدث.

لقد اختفت العصي والحبال في جوف عصى موسى وصارت أثراً بعد عين، حينئذ أيقن السحرة بأنهم أمام معجزة ربانية، وأن من يبارزهم في هذه المعركة لا يمكن أن يكون ساحراً بل إنه فعلاً كما يقول عن نفسه رسول رب العالمين، فلما أيقنوا بذلك ارتفعت الغشاوة عن أعينهم، ولم يتمالكوا أنفسهم إلا أن يخروا لله ساجدين معلنين إيمانهم الكامل وتصديقهم المطلق بكل ما جاء به نبي الله موسى:

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه:٧٠].

لقد تحقق ما حذرهم منه موسى حينما أخبرهم ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ

سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ* وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:٨١-٨٢].

وظهر للجمهور فعلاً أن ما صنعوه كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى، وأن ما جاء به موسى هو الحق المبين.

لعل كلمات نبي الله موسى التي خاطبهم بها قبل اللقاء ما زال صداها في آذانهم بعد: {ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى} فلما وقعت المعجزة لم يتمالك السحرة أنفسهم وأعلنوا إيمانهم وخروا لله سجداً ويعلنون ذلك أمام من ؟! إنهم يعلنون هذا أمام طاغية مصر وجبارها فرعون وعلى مرأى ومسمع من هذه الجموع المحتشدة التي جمعها فرعون لتشاهد هذه المباراة الفاصلة.

ما هذا ؟ ما الذي فعله السحرة ؟ أين ذهبت وعود فرعون البراقة بالمال الوفير والجوائز القيمة والمناصب الرفيعة ؟ بل أين عزة فرعون التي كانت السحرة تعتز بها وتقسم بها على أنهم هم الغالبون ؟ أين هم الآن من جبروت فرعون ومن بغيه وعدوانه ؟ أين هم من ذلك كله ؟

لقد ذاب ذلك كله تحت حرارة الإيمان الذي أضاءت شعلته في قلوب السحرة فلم يعودوا يأبهون بما يملكه فرعون من ملك وجاه وسلطان، كذلك ما عادوا يخشون من بغي فرعون ومن جبروته، فالعقيدة التي استقرت في قلوبهم ما تركت فيها مكاناً لشيء آخر. ولذلك أعلنوها بكل جرأة وقوة وشجاعة {آمنا برب العالمين رب موسى وهارون}

كانت هذه نتيجة الجولة الأولى من المباراة نصر مؤزر لنبي الله موسى وهزيمة ماحقة لفرعون وللملأ من حول فرعون زلزلت عروشهم وهزت أركان ملكهم بشدة وعنف وكادت أن تأتي على بنيانهم من قواعده.

لقد كانت الضربة التي تلقاها فرعون ضربة قاضية والهزيمة قاسية لقد انقلب السحر على الساحر، إن فرعون ما خطط للأمر ليصل إلى هذه النتيجة المؤلمة، إنه ما حشد الجماهير وما استدعى السحرة من طول البلاد وعرضها ليكون السحرة هم

أول المصدقين بموسى، وإنما كان ظنه بأن الأمر لن يتعدى نطاق المسرحية التي سيعلو فيها صوت الباطل صاخباً على صوت الحق، وستضيع الحقيقة وسط الزحام،ولكن صدق الحق سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

لقد حق الحق وبطل الباطل على لسان سحرة فرعون وهم عماد دولته وأركان ملكه فجن جنون الطاغية، وهو يرى بأن الأمر قد خرج من يده وأنه يكاد أن يفقد عرشه وملكه، فإن إيمان السحرة يبطل حجة هذا الطاغية التي كان يواجه بها نبي الله موسى بأنه مجرد ساحر ولكنه ساحر عليم، فهل تكفي هذه فرعون، ويعلن إيمانه بما جاء به نبي الله موسى وتصديقه بآياته، خاصة وأنه قد أعلن في البداية بأنه سيتبع السحرة وها هم هؤلاء السحرة قد آمنوا وخروا لله سجداً فهل يتبعهم فرعون.

إن إيمان السحرة ما زاد فرعون إلا عناداً وكفراً وتكذيباً، وزاده كذلك بغياً وعدواناً، لقد رأى في إيمان السحرة تقويضاً لعرشه وهدماً لأركان ملكه فما الذي تبقى للطاغية بعد إيمان السحرة. خاصة وأن السحر والسحرة هم من يستعين بهم فرعون على السيطرة على مقاليد الأمر في مصر، وينظر إليهم العامة من الناس على أنهم المرشدون والمعلمون والمربون والموجهون، فمعنى أن يؤمن السحرة إيمان الناس جميعاً، وهي القاصمة لظهر فرعون والقاضية على أمره، وهذا ما لا يرضاه لنفسه هذا الطاغية، فماذا صنع حتى يتدارك هذا الموقف، وحتى لا يفلت زمام الأمور من يده ؟

لقد لجأ إلى خطته القديمة التي سلكها مع نبي الله موسى من قبل حينما افترى عليه الأكاذيب ليصرف الناس عن دعوته ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء:٣٤-٣٥].

لقد لجأ إليها فرعون مع السحرة وقد آمنوا فقال لهم: ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٢٣].

إنها مؤامرة اشتركتم جميعاً في نسج خيوطها أنتم وموسى ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾.

ما أشد وقاحة وصفاقة هذا الطاغية إنه لم يتورع عن سوق التهم وافتراء الأكاذيب، والكل يعلم بأنه كاذب في هذا، فهو من استدعى السحرة وجمعهم بنفسه، وما كانت بينهم وبين نبي الله موسى أدنى صلة، ولولا هذه المباراة التي حُشدوا لها ما التقى بهم نبي الله موسى، ومع ذلك كله لم يتردد هذا الطاغية في أن يسوق التهم جزافاً للجميع، وأن يظهر كل من يخالفه الرأي أو يكفر بعقيدته بصورة الطامعين في الحكم، الحريصين على الاستيلاء على العرش، فكان اتهامه للسحرة بذلك.

لقد صور فرعون موسى والسحرة بعد أن أسلموا بأنهم جميعاً ليسوا سوى عصابة واحدة، همها الاستيلاء على الحكم، وهدفها السيطرة على مقاليد الأمر، فعل هذا ليصرف بذلك الجماهير التي احتشدت عن الإيمان كما آمن السحرة. وليخفف من وقع الهزيمة التي تلقاها على أيدي سحرته.

وبالإضافة إلى ذلك ينبغي أن يوجه ضربة قاصمة لهؤلاء السحرة تردع كل من تسول له نفسه من هذه الجماهير التي احتشدت أن يسلك مسلك السحرة في الإيمان فيصدر على السحرة حكماً في غاية الشدة والقسوة:

﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٢٤].

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه:٧١].

لقد كان هذا رد فرعون على إيمان السحرة الحكم بالإعدام بهذه الصورة المنكرة: قطع الأيدي والأرجل والصلب على جذوع النخل، الصلب حتى الموت.

يصدر فرعون هذا الحكم ويتوعد السحرة بقوله وستعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى، يصدر هذا الحكم، ولعله قد ظن بأن مثل هذا الحكم القاسي كفيل بردع كل من تسوله نفسه الإيمان برب العالمين والتمرد على الخضوع له، ومن جانب آخر فلعل قسوة هذا الحكم تجعل السحرة يتراجعون عن موقفهم، ويرتدون على أعقابهم مخافة

من هذا العذاب.

ولكن السحرة كان لهم موقف آخر فكان ردهم ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:٧٢-٧٣].

لن نختارك ونفضلك على ما جاءنا من البينات والدلائل والمعجزات، كذلك لن نفضلك على خالقنا وبارئنا، فاقض ما أنت قاض، احكم بما تشاء وافعل ما تريد، قَطِّع الأطراف، مزّق هذه الأجساد، اصلبنا على جذوع النخل، فهذا لن يغير من موقفنا، ولن يخيفنا أو يفزعنا بغيك وظلمك وعدوانك وتهديدك، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، ما هي القوة التى تملكها إنك مهما بلغت قوتك وجبروتك وبغيك وظلمك وعدوانك فلن يتعدى نطاق هذه الحياة الدنيا، فسلطانك مقيد بها، وما لك من سلطان علينا في غيرها. وما أقصر الحياة الدنيا وما أهون الحياة الدنيا. وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله ويأمل في الحياة الخالدة أبداً.

ثم يعلن السحرة بأنهم يرجون بإيمانهم هذا أن يغفر الله لهم خطاياهم فهم يطمعون من وراء ذلك أن تمحى من صفحاتهم تلك الذنوب والخطايا وهذا التاريخ الطويل مع فرعون وفي بلاط فرعون وما قاموا به من أعمال من السحر أكرههم عليها فرعون.

وإذا كان فرعون يتوعدهم ويهددهم بقوله: ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى، فيأتى جوابهم: والله خير وأبقى فليس عذابك يا فرعون هو الأبقى بل إن الله هو خير وأبقى.

وإذا كان يتهددهم بمن هو أشد عذاباً وأبقى. فها هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرما هي أشد عذابا وأدوم (فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا) فلا هو ميت فيستريح، ولا هو حي فيتمتع. إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة.. وفي الجانب الآخر الدرجات العلى.. جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار (وذلك جزاء من تزكى) وتطهر من الآثام.

وأضافت آيات سورة الأعراف جانباً آخر للموقف: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦].

لقد قالوا لهذا الطاغية: ما الذي تعيبه علينا وتنقمه منا ؟ هل تنقم منا أننا آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ؟ هل هذا هو الجرم التي اقترفناه، والذنب الذي ارتكبناه حتى تعاقبنا عليه بهذه الطريقة، هل هذه جريمتنا في أننا آمنا بالله سبحانه، ولذلك لم يطلبوا من فرعون الصفح والعفو، بل كان دعاؤهم وتوجههم إلى الله سبحانه ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فهذا موقف نحتاج فيه إلى الصبر فأفرغ علينا صبراً من لدنك وتوفنا مسلمين.

وتمضي قافلة الإيمان إلى ربها وقد سخرت من جبروت فرعون، ومن بغي فرعون وظلمه تمضي لتلحق بركب الأنبياء والصديقين والشهداء، ولتثبت للأجيال التالية كيف يكون أثر الإيمان في القلوب، حينما يستعلي بصاحبه على زخرف الحياة الدنيا ومتعها وزينتها، بل حينما يستهين بالبطش والتنكيل والتعذيب الذي يهدد به الطغاة ويكون ردهم على ذلك:

﴿لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ* إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٥٠-٥١].

لقد وقف السحرة بكل عزة وشمم وإباء في مواجهة هذا الطاغية فكان ثباتهم هذا في حد ذاته لطمة أخرى وصفعة بعنف على وجه فرعون.

وتنتهي هذه الجولة بهزيمة قاسية تلحق بفرعون والملأ من حوله، وبنصر مؤزر لنبي الله موسى والمؤمنين معه، فهل تراجع فرعون عن غيه وكفاه ما مضى؟ هل حاول أن يصلح من شأنه، وأن يغير من أساليب حكمه بما ينشر به الخير والعدل والرحمة بين الناس، وما هو موقفه من موسى وبني إسرائيل بعد هذه الجولة من الصراع التي هزت أركان ملكه.

أسئلة كثيرة سنحاول الإجابة عليها ولكن بعد وقفة قصيرة مع الدروس المستفادة:

دروس وعبر:

- إن أهل الباطل تربط بينهم مصالح مشتركة تجمعهم الدنيا والحرص على مطامعها وزينتها، فلقد حشد فرعون السحرة ليستعين بهم على هزيمة نبي الله موسى، فهم يمثلون له اليد القوية التي يمكنها أن تبطش بما جاء به نبي الله موسى، والسحرة كذلك كانت نظرتهم إلى الأمر نظرة مادية فما اجتمعوا من أقصى البلاد وأدناها وشرقها وغربها من أجل قضية يؤمنون بها وإنما ما جمعهم إلا الطمع فيما عند فرعون من الأجر والمغانم التي سيحصلونها عليها من وراء ذلك.

- كان اتفاق السحرة مع فرعون على المغنم والمنصب والقربى من عرشه لو تمكنوا من هزيمة نبي الله موسى، ولكن بعد إيمانهم تغيرت في أذهانهم وقلوبهم الكثير من المفاهيم، فبعد أن كانت أقصى أمانيهم أن يحظوا بمكافأة من فرعون، أو أن ينظر إليهم نظرة عطف ورضى وفي الوقت ذاته يخشون بأس فرعون ويخافون عقابه.

إذ بهم يواجهون هذا الطاغية وهو يهدد ويتوعد (اقض ما انت قاض).

قد يتسائل بعض الناس ما هذا الذي قام به السحرة وما الذي جنوه من وراء ذلك، لقد كان أمامهم كل ما يحلم به المرء وما يتمناه في دنياه، لقد كانت أمامهم الأموال الوفيرة والجوائز القيمة والمناصب الرفيعة، كان أمامهم أن يعيشوا في رغد من العيش، وسعة من الرزق وكل ذلك قد عرضه عليهم فرعون لو تمكنوا من هزيمة نبي الله موسى، فما الذي جعلهم يعرضون عن ذلك كله، بل ما الذي جعلهم يفضلون القتل والصلب والتعذيب على ما عرض عليهم أليس في هذا نوع من الحمق أو نوع السفه. بلى قد يكون ما قام به السحرة هي حمق وسفه إذا كانت الدنيا هي المقصد والغاية، إذا كانت هي كل شيء، ولكنها ليست كذلك !! فإن الآخرة هي المقصد والغاية، وهي والتي وضعها السحرة نصب أعينهم، وهم يواجهون هذا الطاغية: ﴿اقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى﴾.

ولننظر إلى المغنم والمغرم فيما قام به السحرة فمن نظر إلى الأمر نظرة سطحية يرى بأن السحرة قد خسروا الكثير ومن بين ما خسروه

- الفرص المواتية التي عرضها عليهم فرعون من الجوائز القيمة والمناصب الرفيعة التي تقربهم من عرشه.
- حياتهم التي فقدوها وكان أمامهم مستقبل باهر ينتظرهم مع فرعون وملائه.
- النهاية المؤلمة التي انتهت بها حياتهم من الصلب على جذوع النخل وقطع الأيدي والأرجل والنزف حتى الموت

هذا بعض ما خسره السحرة وفقدوه نتيجة لاختيارهم هذا ولكن من يدقق النظر في صنيع السحرة يرى بأنه ما فازوا به لا يمكن مقارنته بحال من الأحوال بما خسروه وضحوا به وبيان ذلك على النحو التالي:

- لقد كانت الآخرة هي المقصد لهم والغاية حينما قالوا لهذا الطاغية: ﴿لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾.

لقد جعلوا رضوان ربهم غايتهم من حياتهم الدنيا، لقد عقدوا الصفقة الرابحة مع ربهم -سبحانه- بدلاً من تلكم الصفقة الخاسرة التى عرضها عليهم فرعون فلما عقدوها مع الله -سبحانه- فازوا بعز الدنيا والآخرة، وكانت المكافأة من الحق - سبحانه- على قدر التضحية التي قدموها من دمائهم وأنفسهم. لقد فازوا برضوان الله -سبحانه- ورضوان الله أكبر حتى من نعيم الجنة كما أخبرنا -سبحانه- {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }[التوبة: ٧٢].

- لقد جاد السحرة بأرواحهم وبذلوها رخيصة في سبيل الله فكافأهم الحق - سبحانه- بالحياة الأبدية، فبدأت حياتهم من حيث تنتهي حياة الآخرين، بدأت حياتهم من تلك اللحظة التى فارقت فيها أرواحهم أجسادهم، وهم ما زالوا على جذوع النخل يصدق فيهم حكم الله وقضاؤه في الشهداء: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ

اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١].

- لقد رفض السحرة عرش فرعون والقرب منه فكانت المكافأة أن أدناهم الحق -سبحانه- من عرشه وخاطبهم كفاحا بلا حجاب ففي صحيح مسلم: " عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) قَالَ أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاَعَةً فَقَالَ هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا قَالُوا أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا [١].

- أما عن تلك النهاية المؤلمة التي يشاهد الحاضرون مدى بشاعتها وفظاعتها من تقطيع الأيدي والأرجل وتطاير الأعضاء والأطراف فما يراه الناس هو الصورة الظاهرة أما ما يشعر به هؤلاء الشهداء فأمر آخر أخبرنا عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلاَّ كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ[٢].

(١) صحيح مسلم. كتاب الإمارة باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة. وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون حديث رقم ٣٥٠٠.

(٢) سنن الترمذي. كتاب فضائل الجهاد. باب فضل الجهاد حديث رقم ١٥٩١.وقال هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ.

الفصل الخامس: بنو إسرائيل وطور من البلاء مرة أخرى

لقد كانت الهزيمة قاسية والضربة موجعة تلك التي تلقاها فرعون والملأ من حوله على يد نبي الله موسى أولاً، فلما أراد فرعون أن يستنصر بسحرته انقلب السحر على الساحر، وكان السحرة هم أول المؤمنين بما جاء به نبي الله موسى وأول المصدقين بآياته، فما كان من هذا الطاغية إلا أن وجه للسحرة ضربة قاسية، مزق الأجسام، وعلق الأجساد على جذوع النخل، ليردع كل من تسول له نفسه أن يتمرد على سلطانه، أو يتخذ لنفسه إلها غيره.

أما الملأ وهم الحاشية من حول هذا الطاغية وبطانة السوء فقد كانوا عوناً لهذا الطاغية على بغيه، والمحرضون له على أن يرتكب المزيد من الجرائم، ولذلك فإنهم قد أظهروا أنفسهم بمظهر الحريصين على الصالح العام لهذا البلد، الغيورين على معتقداته ومكتسباته، في وجه تلك الفئة المتمردة فكان من أمرهم ما قال الحق سبحانه:

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

لقد بدأت مرحلة جديدة من المحنة والابتلاء لبني إسرائيل من ذبح للأبناء واستحياء للنساء، وكأن محنة بني إسرائيل مع فرعون ما كانت قاصرة على تلك الفترة التي سبقت ميلاد نبي الله موسى، بل كانت سياسة متبعة، كلما أحس فرعون بأن عرشه يتهدده الخطر يبدأ حملة جديدة من البطش والقتل والترويع، مما ألقى بالرعب والفزع في قلوب الناس جميعاً، حتى إن شعباً بأكمله يعيش في أرض مصر ما آمن منه بموسى سوى رجل واحد يكتم إيمانه. كانت تلك هي الحالة التي آل إليها أمر الناس بعد أن أفضى السحرة إلى ربهم شهداء.وفي الوقت ذاته قام فرعون بحملة إعلامية مضللة، يحذر فيها الناس من نبي الله موسى، ويصوره لهم على أنه الخطر الداهم الذي يهدد أمن البلاد والعباد، وأنه ينبغي عليهم أن يخلوا بينهم وبينه، حتى يريح البلاد من شره ويخلصهم من أذاه، فهو يخشى على عقائدهم منه، وهذا ما بينته الآيات حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

بل إن فرعون قد تدنى في عداوته لنبي الله موسى إلى درجة لا يصل إليها بشر، فتراه وقد قام خطيباً في قومه يتباهى بملكه والأنهار التي تجري من تحته، ويفتخر بهذا على نبي الله موسى، ويحقر من شأن نبي موسى، ويشوه صورته أمام الناس: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥١-٥٢].

هذا بعض ما وقع من فرعون وآله بعد الهزيمة الماحقة التي أراد الحق سبحانه أن تتحقق على أيدي سحرة فرعون أنفسهم.

أما الصورة المقابلة، أو الجبهة الأخرى جبهة موسى وبني إسرائيل، فإنه نتيجة لسياسة فرعون هذه فلقد دخل بنو إسرائيل في طور جديد من أطوار المحنة والابتلاء، مما كان له أثر كبير في إيمان بني إسرائيل أنفسهم بما جاء به نبي الله موسى، وهذا ما تفصح عنه الآيات، حيث يقول الحق سبحانه:

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:٨٣].

ولذلك نجد أن الحق سبحانه يأمر موسى وهارون عليهما السلام أن يكون لهما دور القيادة والريادة في إنقاذ بني إسرائيل مما هم فيه فكان مما أوحاه الله إليهما ما تحدثت عنه الآيات: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧].

ولذلك قام موسى في بني إسرائيل يبشرهم ويثبتهم ويأمرهم أن يستعينوا بالله سبحانه:

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٨-١٢٩].

ولقد تضمنت الآيات أموراً عدة:

– الاستعانة بالله سبحانه في مواجهة بطش فرعون وجبروت فرعون.

– الصبر على هذه المحن فإن وقت المحن لا يغني فيه إلا الصبر.

– الوعد بالنصر والتبشير به فإن الأرض كلها لله سبحانه يورثها من شاء من عباده فهي ليست ملكاً خاصاً بفرعون وإنما هي لله وحتى لا يتسرب اليأس والإحباط إلى القلوب فيظن صاحبه بأنه لا أمل في النصر ولا رجاء في تغيير هذا الوضع.

– العاقبة ليست للظالمين ولا للمتجبرين وإنما العاقبة للمتقين والعبرة في الأمور بخواتيمها وليست ببدايتها.

وكأن هذه الكلمات قد أثمرت وآتت أكلها في تثبيت بني إسرائيل وهذا ما أفصحت عنه آيات أخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ* فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس:٨٤-٨٦].

ولقد تضمنت هذه الآيات أمور عدة:

التوكل على الله تعالى وحده والاعتماد عليه دون سواه فالأمر كله بيده ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

التضرع إلى الله تعالى والإلحاح في الدعاء في مواطن المحنة والابتلاء ألا يكون فتنة للقوم الظالمين بمعنى أن تثبتنا فلا نرتد على أعقابنا فيزداد الكافرون بغياً وعتواً وظلماً فيقولون هزمناهم وتغلبنا عليهم بقدرتنا وقوتنا، ولو أنهم كانوا على الحق ما تغلبنا عليهم، أو تمكنا منهم.

والتضرع إليه كذلك أن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين، فالمؤمن لا يحب لنفسه التعرض للمحنة والبلاء وإنما يسأل الله العافية.

لقد أمر الله نبيه موسى أن يتخذ له ولقومه بيوتاً بعيداً عن مخالطة القوم الظالمين، وفي الوقت ذاته يجعلون بيوتهم كأنها القبلة يؤمها المؤمنون ويقصدونها ليزدادوا علماً ويقيناً وإيماناً في زمن المحنة العصيب هذا. والهدف من ذلك أن يتميز موسى ومن معه عن القوم الظالمين، فتكون لهم حياتهم الخاصة بهم، ولهم عقائدهم ونظام حياتهم

الذي يخالفون فيه تماماً نظام وحياة مجتمع آل فرعون من حولهم، كل ذلك استعداداً لرحلة الخروج من مصر حتى إذا ما جاء وقت الرحيل كانوا مستعدين له ولا يجدون في خروجهم مشقة أو صعوبة.

كان هذا حال الفريقين فرعون والملأ من حوله ازدادوا بغياً وعتواً وإفساداً في الأرض، وموسى، ومن معه ثابتون صابرون محتسبون ونبي الله موسى وأخاه هارون يقومون بدور جبار في العمل على تثبيت المؤمنين والحفاظ عليهم في وسط هذه الفتن.

ولم تبين الآيات كم مضى على بني إسرائيل في هذه المحن، ولكنها قد أفصحت بأن الملأ من آل فرعون ما ازدادوا إلا بغياً وعتواً وإفساداً في الأرض وهم مع ذلك في رغد من العيش وبسطة في الرزق، تأتيهم الثمرات من كل جانب وتمتلئ خزائنهم بالخيرات، وهم على هذا البغي والعتو والإفساد في الأرض مما جعل نبي الله موسى يتجه إلى ربه بهذا الدعاء: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ* قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٨-٨٩].

ولقد تضمنت الآيات أموراً عدة:

– أن كثرة الأموال والخيرات والثمرات مع فرعون وآل فرعون ما زادتهم إلا بغياً وعتواً وإفساداً في الأرض، ووجود هذه النعم في أيديهم سبب إضلال لكثير من الناس، إما بإغرائهم بهذه الأموال، أو حينما ينظر العامة إلى المال في أيديهم فيفتتنون بما هم فيه من الرخاء، ويظنون بأنهم لو كانوا على ضلال ما كانوا في مثل هذا الرخاء.

– دعاء نبي الله موسى أن يطمس على هذه الأموال فيهلكها فلا ينتفع بها أحد من الناس بعد ذلك، طالما أن هذه الأموال ما زادت هؤلاء القوم إلا بغياً وعتواً وإفساداً في الأرض.

– قناعة نبي الله موسى بأن هؤلاء القوم قد بلغوا من الكفر والطغيان حداً لا يرتجى منهم خير ولا يؤمل فيهم إصلاح أو هداية ولذلك كان دعاؤه (لاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ) أي لا يؤمنوا إلا بعد أن ينزل بهم العذاب فلا ينفعهم هذا الإيمان.

–استجابة المولى سبحانه لدعاء نبي الله موسى وهارون وأمره لهما بالاستقامة والحذر من اتباع سبيل وطريق ومنهاج الذين لا يعلمون.

كان هذا دعاء نبي الله موسى على فرعون وآل فرعون أن يطمس الله على الأموال، وأن يشدد على القلوب ووعد الله بإجابة هذا الدعاء وأنجز الله لنبيه موسى ما وعده واستجاب له الدعاء وبدأت رحلة العذاب الأليم لفرعون وآل فرعون وهو موضوع الحلقة التالية من قصة الصراع بين موسى وفرعون نكمله ولكن بعد وقفة قصيرة مع الدروس والعبر المستفادة من الآيات:

دروس وعبر:

– لقد أمر نبي الله موسى قومه وقد نزلت بهم المحن ودخلوا في طور من أطوار الفتن على أيدي فرعون وجنوده أمرهم بالاستعانة بالله سبحانه والصبر: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وهذا درس لكل داعية لدين الله تعالى إذا ما دخل في طور من أطوار المحنة والابتلاء فعليه الاستعانة بالله سبحانه والصبر والصلاة فهي زاد المؤمن عند نزول البلاء والمعين له في مواجهة المحن وصدق الحق سبحانه:﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ* الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

وبالإضافة إلى ذلك فينبغي ألا يقنط لحظة، أو يتسلل الخوف والجزع إلى قلبه ولو لثانية واحدة مهما طال ليل المحنة واشتدت ظلماته، وإنما ينبغي أن يوقن بأن الأمر كله بيد الله سبحانه، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

– الثبات والصبر عند نزول المحن مع اليقين بأن النصر بعد الصبر وأن المحن والابتلاءات هي الضريبة التي لابد من بذلها وأدائها حتى يتحقق النصر ويتم التمكين وهذه سنة الله في خلقه التي أكدت عليها آيات القرآن الكريم في أكثر من موضع وبينها لرسوله –صلى الله عليه وسلم– والمؤمنين معه حيث يقول –سبحانه– { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) } [الأنعام: ٣٤].

الفصل السادس:

ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين

لقد بدأت رحلة العذاب مع فرعون وآل فرعون، وبدأ خط الانحدار والهبوط بعد العلو والصعود بالباطل بدأ الانحدار إلى الهاوية. وحقت على فرعون وآله سنن الله في أخذه للمكذبين والمعاندين، فلقد عاث فرعون في الأرض فساداً، خاصم الله في ألوهيته، ونازعه في ربوبيته. كذب بأنبياء الله المرسلين. وروع الآمنين وأذاق الموحدين ويلات العذاب، فكان لا بد من وضع حد لهذا الطغيان، جزاءً وفاقاً لما اقترفته أيدي الظالمين، فكان أن صب الله عليهم العذاب صباً، يقول الحق سبحانه: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ *الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ* إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[الفجر:١٠-١٤].

لقد صب الله عليهم العذاب جزاءً وفاقاً لما اقترفته أيديهم واستجابة كذلك لدعاء نبي الله موسى:﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[يونس:٨٨].

ويشعر المرء من بين هذا الدعاء إلى أي مدى قد وصل إليه هذا الطاغية والملأ من حوله في البغي والظلم والعدوان، حتى إن نبي الله موسى قد دعا ربه أن يشدد الله عليهم وطأة العذاب فلا يؤمنوا إلا بعد أن يروا العذاب الأليم حيث لا ينفعهم الإيمان حينئذ.

وكما أذاق فرعون بني إسرائيل العذاب أشكالاً وألواناً بدأت رحلة العذاب مع فرعون وملئه كذلك، لكن المتابع لسياق الأحداث يستشعر رحمة الله الواسعة التي عمت كل شيء يستشعر هذه الرحمة حتى مع فرعون وآل فرعون، لقد وصل الحال بهذا الطاغية أن نازع الله في ألوهيته وخاصمه في ربوبيته، وقال للناس ما علمت لكم من إله غيري، وتجرع الكثير من عباد الله تحت يديه العذاب أشكالاً وألواناً، ومع ذلك لما حانت ساعة العقاب فإن الحق سبحانه لم يعاجلهم بعذاب مباغت يأتيهم فجأة أو على

حين غرة، وبغير مقدمات، وإنما جاءتهم نذر العذاب الواحدة تلو الأخرى، لعل القوم يثوبون إلى رشدهم ويتراجعون عن غيهم، وتبدأ النذر بأمر هين في البداية ثم تشتد الوطأة مع إصرار القوم على الكفر والعناد والضلال، والمطلع في آيات القرآن والمتأمل فيها يرى بأن عذاب آل فرعون قد مر بمراحل ثلاث أشدها آخرها:

الأولى: الأخذ بالسنين ونقص الثمرات.

الثانية: الآيات المتتابعة من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات.

الثالثة: الاستئصال التام وكان أمرهم على نحو ما ذكر الله في كتابه وما بينته لنا آيات القرآن: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ* فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ* وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ* وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ* فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٥].

لقد بدأ الأمر كما أخبر -سبحانه- (أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) والأخذ بالسنين: هو الأخذ بالشدة والقحط والجدب وقلة المحاصيل وهى في بلد كمصر ظاهرة غير طبيعية تلفت النظر وتسترعي الانتباه، فمصر معروفة على مدار التاريخ بخصوبة أرضها وعذوبة مياه أنهارها ووفرة محاصيلها، فهذه طبيعتها التي تفضل الله به عليها، فحينما تنقلب الأوضاع فيحل القحط محل الخيرات والثمرات فهذا لا يمكن أن يحدث إلا لأمر قد حدث له علاقة بسلوك القوم في حياتهم، فلعلهم يتعظون بذلك ويراجعون أنفسهم ويصححون من أخطائهم، فهل انتبه القوم إلى ذلك ؟ إنهم ما ازدادوا إلا بغياً وعتواً بل زيادة في البغي وكان من أمرهم ما أخبر عنه المولى -سبحانه- ﴿ فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ ﴾ إذا جاءتهم الخيرات والثمرات

وأخرجت الأرض زهرتها وزينتها نسبوها لأنفسهم، وأنها ما جاءتهم إلا لأنهم يستحقونها، فلذكائهم ولخبراتهم الطويلة في مجال الزراعة والحرث جاءتهم هذه الثمرات !!!

وفي المقابل: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ ﴾ إذا ما نزلت بهم مصيبة وحلت بهم كارثة من الكوارث لم يراجعوا سيرتهم، أو يحاولوا النظر في أفعالهم، لعلها هي سبب ما هم فيه من الجدب وقلة المحصول لم يفعلوا ذلك، بل تشاءموا بنبي الله موسى ومن معه، يقولون لهم أنتم سبب مصائبنا ووجودكم بيننا شؤم علينا، ويعقب المولى -سبحانه-:﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ إن ما هم فيه ليس له إلا سبب واحد ومصدر واحد ألا وهو علاقتهم بالله -سبحانه- فهو الذي يبلوهم بالشر والخير فتنة ولكن أكثرهم لا يدرك ذلك ولا يستوعبه.

لقد نزل سوط العذاب على فرعون وآل فرعون فهل تضرعوا إلى الله -سبحانه- ؟ هل راجعوا تاريخهم وحاولوا أن يصلحوا من شأنهم ويصححوا علاقتهم بربهم ؟ إن الأخذ بالسنين ما زادهم إلا بغياً وعتواً وكان مثلهم في هذا كمن أخبر الحق-سبحانه- عنهم بقوله: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٤٣].

لقد قست قلوبهم إلى درجة أنهم تحدوا نبي الله موسى بقولهم: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف:١٣٢].

إن الأخذ بالسنين ونقص الثمرات لم يغير من سلوكيات حياتهم في شيء بل ما زادهم إلا عتواً واستخفافاً بآيات الله حتى إنهم نسبوا ما هم فيه من الشدة والبلاء لسحر موسى فهم يقولون له مهما حدث حتى ولو انقلبت الدنيا رأساً على عقب، لن نؤمن بك ولن نصدق بما جئت به. فلما كان هذا موقفهم شدد الله عليهم وطأة العذاب وهي المرحلة التالية في عذاب آل فرعون:

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ ﴾ إن الأخذ بالسنين ونقص الثمرات ما زادت القوم إلا بغياً وعتواً فشدد الله عليهم وطأته

فجاءهم الطوفان بعد سنوات من الجدب والجفاف وقلة المحاصيل ونقص الثمرات، يأتي الفيضان ولكنه ما جاءهم على صورة رحمة من عند الله ينشره على من يشاء من عباده، ولكنه جاء طوفاناً مدمراً أغرق البلاد والعباد، واجتاح كل شيء في طريقه، ومع ذلك لم يتضرعوا، وبعد هذا الطوفان المدمر انحسرت مياه الفيضان وأخرجت الأرض زهرتها وزينتها واخضر وجه الأرض على ضفاف النيل في مصر، وأخرجت الأرض زهرتها وثمرتها، وآتت أكلها فهل شكروا الله على نعمهم وحمدوه على آلائه لقد غرهم ذلك وازدادوا عتواً، فلما فعلوا ذلك سلط عليهم أسراب الجراد فالتهمت محاصيلهم، وتركت بلادهم خراباً , وبعد جهد جهيد استطاعوا أن يستنقذوا بعض محاصيلهم من بين أسنان الجراد، وقاموا بتخزينه في صوامعهم وهم في ذلك كله غير شاكرين لله على نعمه بل جاحدين لفضله فماذا حدث؟

لقد سلط الله عليه القُمّل وهو السوس فيلتهم ما قاموا بتخزينه داخل صوامعهم ومخازنهم، وبالإضافة إلى ذلك نغص الله عليهم معيشتهم فسلط عليهم الضفادع أقضت مضاجعهم، وجعلت حياتهم بؤساً وشقاءً، بل إن مياههم التي يشربونها تحولت إلى دم بلون ورائحة الدم وبطعمه ومذاقه، وكأن الدماء النازفة التي سفكوها بغياً وظلماً وعدواناً صارت عليهم لعنة فانقلبت مياه أنهارهم إلى دماء.

لقد جاءتهم هذه الآيات آيات مفصلة وعلامات بينة بأن ما هم فيه من الشدة والمحنة وصنوف العذاب ليس له سوى سبب واحد ألا وهو كفرهم بالله –سبحانه– وبغيهم وإفسادهم في الأرض، فهل راجعوا أنفسهم بعد ذلك؟ هل تابوا إلى ربهم وأنابوا ؟ إنهم ما فعلوا من ذلك شيئاً، وإنما كان أمرهم كما قال –سبحانه–: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾.

إن الكبر الذي ملأ قلوبهم والعتو والإجرام الذي صار منهاجاً وأسلوباً لحياتهم، هو الذي حال بينهم وبين الإيمان، وصرفهم عن التضرع والاستغفار، فلما لم يستغفروا اشتدت عليهم وطأة العذاب أكثر لدرجة جعلتهم يصرخون ويستنجدون ويستغيثون بنبي الله موسى وهم لا يفعلون ذلك إلا وقد نزلت بهم صنوف من البلاء ما استطاعوا تحملها، فاستغاثوا بنبي الله موسى: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ

عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.

لقد وقع عليهم الرجز ولكن ما المراد به ؟ إنها صورة من صور الشدة والعذاب التي أخذ الله بها فرعون وآله، لم تفصح عنها آيات القرآن قد تكون وباءً مهلكاً أو صوراً أشد من العذاب ولكنها لا تُحتمل، ونفهم من خلال الآيات بأنها صورة من العذاب لم يحتملها جبابرة الأرض في زمنهم لدرجة إنها لشدة وقعها عليهم وعدم تحملهم لها لجئوا إلى نبي الله موسى يظهرون له اعترافهم بالخطأ واستجابتهم لنبي الله موسى، ولكن بعد أن يرتفع عنهم هذا العذاب ﴿ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

إن القوم على يقين تام بأن ما هم فيه مرده إلى خطاياهم، وعلى يقين كذلك بأن القادر على رفع هذا البلاء هو الإله الحق الذي يدعوهم إليه نبي الله موسى ولذلك لجئوا إلى نبي الله موسى كي يدعو ربه بما عهده، عنده أن يرفع عنهم هذا العذاب، وهم على أتم الاستعداد أن يؤمنوا بإله موسى وسيطلقون سراح بني إسرائيل ولكن بعد رفع هذا العذاب فما الذي تم بعد هذا.

سياق الآيات لم يذكر ما قام به نبي الله موسى، ولكن يفهم من خلال السياق بأن نبي الله موسى أجابهم إلى هذا ودعا ربه فرفع الله عنهم العذاب فهل آمنوا ووفوا بما عاهدوا عليه موسى هذا ما تخبرنا عنه الآيات: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ لقد كشف الله عنهم العذاب واستراحوا من هذا العناء، ولكن بمجرد أن تم هذا نكصوا على أعقابهم، ونكثوا عهودهم، وعادوا إلى سيرتهم الأولى من البغي والظلم والعتو والإفساد في الأرض، فلما صنعوا هذا ما بقي لهم عند ربهم من عذر، فكان الانتقام منهم أمراً محتوما وقدراً مقضياً وهي المرحلة الأخيرة من مراحل العذاب التي حلت بفرعون وآل فرعون ونزلت بهم في هذه الحياة الدنيا نفصل الحديث عنها في الفصل القادم، ولكن بعد وقفة قصيرة للدروس والعبر من هذه الآيات.

دروس وعبر:

–إن رحمة الله بعباده رحمة واسعة فلا يعاجلهم بعقاب أو ينزل بهم عذاب على كفرهم ومعاصيهم وإنما تأتيهم إشارات لهذا العذاب ومقدمات له على صورة نذر لهذا

العذاب فلعل العباد يتضرعون إلى ربهم ويرجعون عن غيهم فإذا لم يتضرعوا استدرجهم من حيث لا يشعرون، وهذه سنة الله في عباده جميعاً يقول -سبحانه-:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ* فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ* فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٢-٤٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ* ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥].

- إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين استقامة العباد على أمر الله -تعالى- ورغد العيش والسعة في الرزق وطيب الحياة، كذلك هناك تلازم بين شظف العيش والضيق في الرزق ونكد الحياة ومعصية الله -سبحانه- وتعالى ومخالفة أمره، وهذه سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً وهذا ما أكدته آيات القرآن:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى* وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا* قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى* وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٢٣-١٢٧].

﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:١٦-١٧].

- إن ما يصيب العباد والبلاد من مصائب وكوارث ليست مجرد ظواهر طبيعية لا صلة لها بسلوك العباد على وجه الأرض، وإنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسلوكيات العباد ونظام حياتهم على وجه الأرض، فهي نتاج أفعالهم وثمرة طبيعية للمنهج الذي يختارونه لتنظيم أمرهم ولقد قال الحق-سبحانه-: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤٠-٤١].

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

الفصل السابع: فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم

لقد بالغ القوم في الكفر وأوغلوا في الضلال ولم تؤثر فيهم آيات العذاب التي جاءتهم على صور شتى وكان شأنهم في ذلك شأن كل طاغية جبار لا تزيده الإنذارات إلا بغياً وعتوا وإفساداً وتكذيباً يصدق فيهم قول الحق سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ* فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ* فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٢-٤٥].

لقد كان هذا شأن آل فرعون نزلت بهم الشدائد وأخذوا بالسنين وجاءتهم آيات العذاب الواحدة تلو الأخرى لعلهم يتضرعون إلى ربهم ويثوبون إلى رشدهم ويتراجعون عن غيهم، ولكنهم قوم قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون فصار حالهم بالنسبة للبشرية كالعضو الفاسد لا بد من استئصاله والخلاص منه كي لا يتضرر الجسد كله من هذا الفساد، وهذا ما وقع مع فرعون وآله ولكن كيف تم استئصالهم هذا ما تناولته الكثير من الآيات نذكرها أولاً ثم نعقب عليها بعد ذلك:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ* فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ* إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ* وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ* وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ* فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ* فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ* فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ* قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ* فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ* وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ* وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ* ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٥٢-٦٧].

وفي سورة القصص: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ* فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص:٣٩-٤٢].

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى* فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ *وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ [طه:٧٧-٧٩].

وفي سورة يونس: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ* آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ* فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس:٩٠-٩٢].

وفي سورة الدخان: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ *وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ* كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ *وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ* فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان:٢٣-٢٩].

وفي سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ *إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ* يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ *وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود:٩٦-٩٩].

وفي سورة غافر﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ* النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ *وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ* وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ* قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ* إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ *يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر:٤٥-٥٢].

لقد رسمت هذه الآيات صورة متكاملة لنهاية حكم هذا الطاغية وكل سورة من هذه السور التي ذكرناها تناولت جانباً منها ومن خلال هذه الآيات مجتمعة نخلص إلى مجموعة من الأمور:

-إن العداوة بين موسى وبين فرعون وآله قد وصلت إلى نهايتها حتى إن نبي الله موسى قد استجار بالله سبحانه أن يقتلوه.

- إن فرعون لم يكتف بما يصنعه مع بني إسرائيل وقد أدخلهم في طور من أطوار المحنة والابتلاء بقتل الأبناء واستحياء النساء، وإنما أمر بالتعبئة العامة وحشد أكبر قوة ممكنة لديه، ولعله قد أراد من خلال هذه التعبئة أن يوجه لبني إسرائيل ضربة قاضية، لا تقتصر على ما ينزله بهم من صنوف العذاب وإنما تستأصل الوجود الإسرائيلي بأكمله القائم على أرض مصر.

وحينما وصلت الأمور إلى هذا الدرجة من الخطورة كان الأمر من الله سبحانه لنبيه موسى أن يسري ببني إسرائيل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ والسُرى السير ليلاً، وأمره المولى سبحانه أن يكون خروجهم ليلاً فهم متبوعون ففرعون وجنوده يلاحقونهم ويطاردونهم.

ويخرج نبي الله موسى وبنو إسرائيل على كراهية من فرعون وملئه، وعلى الرغم من أنف فرعون فيحشد فرعون جنوده ليلاحق هذه الفئة المتمردة عليه، وهون من أمرها على من حوله، حتى لا يظنوا بأن الملك الإله يخشى خطر هذه الفئة وهو يصور حالهم بأنهم شرذمة قليلون مجموعة قليلة لا يعبأ بأمرها، ولكنهم مع ذلك فهم يأتون من الأعمال ما يغيظ فلابد من ملاحقتهم ومطاردتهم من أجل ذلك.

ويخرج نبي الله موسى ومن معه إلى حيث أمره الله سبحانه إلى جهة المشرق متجهاً صوب سيناء والأرض المقدسة التي كتب الله لهم. ويلاحقهم فرعون بجنوده، ولكن قبل أن تذكر الآيات بقية الأحداث تبين حال الفريقين عند الخروج فموسى وقومه خرجوا فراراً بدينهم، ولكن فرعون وجنوده خرجوا بغياً وظلماً وعدواناً.

وخرجوا كذلك وقد خلفوا من ورائهم ما وصفته الآيات:﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٩]

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ *وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الدخان:٢٥-٢٨]

لقد تركوا وراءهم المعيشة الرغد تركوا الجنات والعيون والزروع والثمرات والكنوز والقصور أخرجهم الله من ذلك كله فما عادوا إليه بعد ذلك أبداً، ولقد كانوا في غنى عن هذا الخروج، ولكنه البغي والظلم والعداون هو الذي أدى بهم إلى ذلك.

خرج الفريقان ويصل نبي الله موسى ومن معه إلى شاطئ البحر ولعلها الضفة الغربية لخليج السويس المواجهة لأرض سيناء يلاحقهم فرعون بجنوده اتبعوهم مشرقين، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون فلا مهرب لنا من هذا، لقد وقعنا كما يقال بين فكي الكماشة البحر من أمامنا وفرعون وجنوده من خلفنا فأين المهرب ولكن نبي الله موسى رد عليهم رد الواثق من نصر ربه سبحانه المطمئن إلى تأييده وعونه، قال: كلا لا يمكن أن نُدرك أو نقع في قبضة هؤلاء الطغاة فإذا كان فرعون معه جنوده فإن معي ربي سيهدين.

لقد كان موسى على يقين من هذا من اللحظة التي قال له فيها ربه لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى. ولذلك قال كلا. في شدة وتوكيد. كلا لن نكون مدركين. كلا لن نكون هالكين. كلا لن نكون مفتونين. كلا لن نكون ضائعين ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾بهذا الجزم والتأكيد واليقين.

يقول نبي الله موسى ذلك وهو لا يعلم من أين سيأتيه الغوث، وفي لمح البصر يأتي الغوث من الله سبحانه، ويأتي الأمر من الله سبحانه:﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء:٦٣].

إنها نفس العصا التي جعلها المولى سبحانه سبباً في هزيمة فرعون وملئه هي التى جعلها الحق كذلك سبباً في نجاتهم من الوقوع في قبضة هذا الطاغية اضرب بعصاك البحر فلما ضربه بعصاه انفلق البحر شقين فكان كل شق منها كالجبل العظيم،

ومن بين أمواج البحر ومن بين شقيه التي صارت كالجبال العالية يكون طريق النجاة لقد انشق لهم البحر عن طريق صورته الآيات: ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ [طه:٧٧]..

إنه طريق يبس مع أن الأمواج والمياه تحوطه من كل جانب وتحاصره من كل ناحية مع ذلك فلقد كان طريقاً يبساً، فإن من شقه لهم في وسط اليم أتم نعمته عليه فجعله لهم طريقاً يبساً لا تغوص فيه الأقدام، ولا يتأذون بطينه وأوحاله.

ويعبر نبي الله موسى وبنو إسرائيل معه إلى الضفة الأخرى إلى أرض سيناء، ويقترب فرعون من البحر، والآيات تصور كأنه ما اقترب من تلقاء نفسه وإنما كما جاء في نص الآية ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:٦٤].. لقد أدناه المولى سبحانه من البحر وقربه منه ليلقى مصيره المحتوم.

وهنا وقفة ترى حينما اطلع فرعون على الطريق الذي عبر منه موسى وقد انشق عنه البحر وأمواج الجبال على حافتيه كالجبال العظيمة، ألا تكفيه هذه آية من آيات الله تعالى وتجعله يوقن بصدق نبي الله موسى وبكفره هو وضلاله، ولكن حقيقة الأمر أن فرعون ما كان في حاجة إلى دليل أو برهان على صدق هذا النبي، فهو والملأ من حوله كانوا على يقين من هذا، ولكن شأنه كما أخبر سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

إنه الظلم والبغي والجحود والكبر هو الذي حال بينهم وبين الإيمان والتصديق، فكان لا بد وأن يلقوا هذا المصير فيصل فرعون بجنوده إلى شاطئ البحر، تُرى هل أراد الرجوع ؟ هل خاف من ملاحقة موسى وقومه في وسط طريق محفوف بالمخاطر ؟ إن مناظر الأمواج العالية كأنها الجبال كانت كفيلة بأن تردعه عن مواصلة المسير، ولكنه الكبر الذي ملأ قلب هذا الطاغية والبغي والظلم والعدوان أعمى بصره وبصيرته عن الخطر الذي يحاصره من كل جانب، ويحيط به من كل ناحية، ويطل عليه من بين الأمواج، لعل نفسه قد حدثته بالرجوع وكفاه ذلك، ولكن هل يظهر أمام العامة من الناس بصورة المهزوم هل يعود يجر أذيال الهزيمة والخزي ويقول الناس: بأن موسى قد تمكن من هزيمة الفرعون الإله فكان لا بد من ملاحقة هذه الشرذمة حتى ولو كان

الطريق الذي يمضي فيه بين الأمواج.

ومن جانب آخر يظهر سلوك فرعون هذا شدة عدواة فرعون لنبي الله موسى فهو يصر على ملاحقته ومطاردته إلى آخر مدى، ويظن بأنه يمكنه أن يدركه في نفس الطريق الذي عبر منه موسى وقومه، ولكن أنى له ذلك فهذا درب خاص بالمتقين وطريق قد شقه الله خاصة لنجاة موسى وقومه وفي الوقت ذاته طريق الهلاك لفرعون وجنوده.

لقد عبر موسى وقومه ويأمره ربه أن يترك البحر رهواً يتركه ساكناً على حاله يتركه ليكون بمثابة الفخ والكمين الذي يقع فيه الطاغية وجنوده ويظل البحر ساكناً على حاله ويندفع فرعون وجنوده على الطريق اليبس وبين جبال من الأمواج العالية، ولكن ما إن اجتاز نبي الله موسى ومن معه البحر، ودخل فرعون وجنوده بين الأمواج حتى انهارت عليهم جبال الأمواج من كل جانب وغشيتهم من كل ناحية ﴿غَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨].. لقد انهارت فوق رؤوسهم جبال الأمواج وغاص الطريق اليبس في قاع البحر مرة أخرى فهو درب خاص بالمصلحين لا يمكن للفاجرين والطغاة والمفسدين العبور عليه.

ويوقن فرعون بأنها النهاية، وأنه لا مهرب له من هذا المصير ويتراءى له شبح الموت من بين هذه الأمواج فيحاول تدارك الأمر فيعلن إيمانه واستسلامه آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل.

لقد سقطت عن فرعون الباغي العادي المتجبر الطاغي.. كل أرديته التي تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة , ولقد تضاءل وتصاغر واستخذى. فهو لا يكتفي بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. فيزيد في استسلام وأنا من المسلمين[١]

ترى هل كان فرعون صادقاً في ادعائه الإيمان في هذه اللحظات إن المرء

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب ١٨١٨/٣ط. دار الشروق.

يستشف من بين ثنايا كلماته أن كبره وغروره لم يفارقه حتى هذه اللحظة، فإنه لم يقل آمنت بالله، ولم يعترف صراحة بذلك، فكأنه حتى هذه اللحظة يأبى عليه كبره وجحوده أن يعترف صراحة بأن لا إله إلا الله فقال ما قال فيأتى الرد من الله سبحانه: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ آلان تدعي الإيمان وكنت قبل عاصياً ومن المفسدين!! لماذا لم تعلنها من قبل؟ لماذا تؤخرها حتى هذه اللحظة ؟ آلان تريد النجاة لقد مضى وقتها وفات أوانها فلقد جاءت في غير موضعها وفي غير زمانها فاليوم بالنسبة لهذا الطاغية ليس يوم الرحمة والمغفرة وإنما اليوم هو يوم العذاب ويخاطبه ربه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

اليوم يوم النجاة لا لشخصك ولا لمجدك وعرشك وجنودك. اليوم يوم النجاة لبدنك فقط ستلفظه أمواج البحر لن يبتلعه اليم ولن يتوارى بين الأمواج. لن تأكله أسماك البحر. وكأن هذه الجيفة قد تأذى من نتنها كل شيء حتى البحر قد لفظه ليلقى به على شاطئ اليم جثة هامدة لينظر إليها الناس ويتأملوا في قسماتها هل هذا هو فرعون ؟ هل هذه هي نهاية هذا الطاغية !!

لقد نجى الله بدنه ليكون آية وعبرة للأجيال التى تأتى بعد ذلك ولكن الكثير عن آيات الله غافلون.

لقد هلك فرعون وجنوده ودالت دولة الطغاة البغاة واستراحت الدنيا جميعاً من هذه العصبة الكافرة فما تأثر أحد لمهلكهم فهؤلاء الطغاة المتعالون لم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء. ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء. وذهبوا ذهاب النمال , وهم كانوا جبارين في الأرض يطأون الناس بالنعال ! وذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون يمقتهم لانفصالهم عنه , وهو مؤمن بربه , وهم به كافرون ! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه [١]!

(١) في ظلال القرآن. سيد قطب ٣٢١٤/٥ط. دار الشروق.

لقد مضى فرعون وجنوده غير مأسوف عليهم إلى قاع اليم وما كانت هذه هي نهاية المأساة بالنسبة لهذا الطاغية ومن معه، بل كانت هي بداية رحلة العذاب والهوان لهذا الطاغية ولكل من اتبعه، وسار في ركابه وكان عوناً له على بغيه وظلمه وعدوانه فكان من أمرهم كما أخبر الحق سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ *وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص:٤١-٤٢].

إن من الناس من يجعلهم ربهم أئمة للهدى والخير والرشاد فهذا من رحمة الله به وفضله وكرمه عليه، ولكن فريقاً آخر من الناس يكونون أئمة للناس في الكفر والبغي والضلال والإفساد في الأرض فهذا من نقمة ربه عليه وشدة غضبه وسخطه، منهم هذا الطاغية فرعون والملأ من حوله فلقد كانوا في الكفر والضلال قادة وأئمة يتأسى بهم كل جبار عنيد فكما أنهم كانوا أئمتهم وقادتهم في الكفر والضلال في الدنيا فهم قادتهم الذين يدعونهم إلى نار جهنم.

وما اقتصر العقاب على ذلك وإنما أتبعناهم في هذه الدنيا لعنة، إنها لعنة من عند الله سبحانه تلاحقهم إنها ليست لعنة الفراعنة التي يتخيلها من يدرس في تاريخ الفراعنة وإنما هي لعنة من عند الله سبحانه تلاحق هؤلاء الجبابرة وتطاردهم ومن هم على شاكلتهم في الدنيا، ويوم القيامة هم من المقبوحين إنهم ليسوا من المختارين أو الممدوحين، بل إنهم من المقبوحين في مقابل البغي والعلو والكبر في الدنيا.

وليت الأمر قد وقف بهذا الطاغية وآله عند هذا الحد وإنما تلاحق نقمة الله وغضبه ولعنته هذا الطاغية وجنوده أين ما ذهبوا وتدخل معهم قبورهم التي توارو فيها بعد هلاكهم وغرقهم تلاحقهم فلا تفارقهم لحظة وقد كشفت عن ذلك آيات الذكر الحكيم حيث يقول سبحانه:

﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ* النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ *وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا

كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ *وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥-٤٩].

لقد بدأت رحلة العذاب لفرعون وآل فرعون وأحاط بهم العذاب من كل جانب، وحاصرهم من كل ناحية. ولاحقهم في قبورهم،وتمثل هذا في النار التي يعرضون عليها صباح مساء،وعرضهم على النار إما لمشاهدتها والنظر إلى مقاعدهم فيها،وكفى بهذا عذاباً أن يرى المجرم مقعده من النار وما أعده الله له فيه. وإما لأن عذابه قد بدأ فعلاً في نار جهنم وهو الأمر الراجح والمناسب لحال كل جبار عنيد. فإذا ما جاء يوم القيامة يأتي هذا النداء: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب.

وتصور آيات أخرى فرعون وهو يتقدم قومه ويقودهم في طريق الهلاك: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ [هود:٩٨].

ألم يخبرنا الحق سبحانه بأنهم كانوا أئمة يدعون إلى النار فجاءت الساعة التي يقود فيها فرعون قومه إلى جهنم فهو يرد بهم النار كما يرد صاحب قطيع الأغنام أغنامه إلى موردها،ولكن صاحب القطيع يردهم ماءاً يروي بها عطشها وظمأها أما قطيع فرعون فيرد بهم جهنم فلقد كان قومه من خلفه بمثابة القطيع التي تتبع خطاه أينما توجه فهي تتبع خطاه إلى النار بئس الورد المورود أن يكون هذا هو المورد.

ويتساقط الراعي والرعية أو التابع والمتبوع أو فرعون والجنود يتتابعون جميعاً إلى قاع جهنم ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ* وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء:٩٤-٩٥].

لقد ألقي بهم في قاع الجحيم واجتمعوا فيها جميعاً بعد رحلة عذاب طويلة في القبور وتلاقت الوجوه مرة ثانية، وبدأت رحلة العذاب الشديد التى أخبر عنها الحق سبحانه (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) ومن بين ألسنة اللهب المستعرة،وفي وسط لجات الجحيم ترسم الآيات صورة للجميع، وقد اجتمعوا في قاع جهنم، لقد اجتمع فيها السادة والأتباع الراعي والقطيع، فرعون والجنود، الضعفاء والذين استكبروا، لقد اجتمعوا فيها جميعاً ولم يغن عن الضعفاء أنهم كانوا ضعفاء،لم يغن عنهم أنهم كانوا

يعيشون تحت الأقدام،لم يشفع لهم أنهم إمعات وذيول وكانوا يساقون سوق القطيع، فلقد كانت لهم كرامة تنازلوا عنها مختارين وساروا في طريق الذل والهوان وراء قادتهم وسادتهم فها هم مع قادتهم وسادتهم، وقد قادوهم كذلك إلى قاع الجحيم فهم يسألون قادتهم في ذله وانكسار ﴿إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ كنا اتباعاً لكم وذيولاً كنا منفذي تعليماتكم ومحققي رغباتكم ما خالفناكم في شيء، فهل تتحملوا عنا نصيباً من هذه النيران ألا تتحملون عنا بعض العذاب فيجيبهم السادة في ذلة وانكسار أشد وقد سقط عنهم قناع الكبر الذي كانوا يتخفون من خلفه أجابوهم: ﴿إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾ نحن وأنتم في هذا المصير سواء فلقد قضى الله بذلك أن نكون نحن وأنتم في هذا المصير سواء.

ويتجرع الجميع كأس الندامة والحسرة ويتجهون إلى خزنة جهنم والموكلون بأمرها من قبل الحق سبحانه (ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب) إنهم يتوسلون لخزنة النار أن يخفف عنهم العذاب ليوم واحد فقط يوم واحد هذا ما يطمعون فيه يوم واحد فقط،يلتقطون فيه الأنفاس، ويستريحون فيه من هذا العناء،ولكن الخزنة يجيبونهم بما يزيد الحسرة في قلوبهم،ويردون عليهم مبكتين لهم:﴿أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى﴾ أما جاءتكم رسل الله بالبراهين الواضحة والآيات البينة التي تحذركم من هذا المصير ؟فيقرون بذلك قالوا بلى ! فلما أقروا لهم بهذا أجابوهم: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ادعوا كما تشاؤون فدعاؤكم ما عاد فيه خير يرتجى لكم (اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم)[الطور:١٦]. ادعوا فدعاؤكم لا قيمة له فلقد مضى وقت الدعاء، وجاء وقت الحساب والجزاء.

ويسدل الستار على هذا المشهد وهو يصور حال فرعون والجنود يتجرعون ويلات الجحيم ولا مغيث ولا مجيب فلقد قضى الأمر وتحتم القضاء.

ويأتي التعقيب على ذلك بقول الحق سبحانه ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ *يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر:٥١-٥٢].

إن العاقبة للمتقين إن العبرة ليست بلحظة انتفاش الباطل وقدرته على الخداع في لحظة من اللحظات وإنما الأمور بخواتيمها فلقد كان هذا مصير الطغاة الهزيمة والانكسار في الدنيا والخزي والعذاب الأليم في الدار الآخرة.

أما رسل الله والمؤمنون به فلهم النصر وعداً من الله حقاً ومن أوفي بعهده من الله لهم النصر في الدنيا، حتى ولو رأى الناس بأنهم يُبتلون ويتألمون ويعانون على أيدي الطغاة أشد العناء، فمع ذلك لهم النصر كما نصر الله نبيه موسى والمؤمنين معه كذلك ينصر كل نبي ومن اتبعه،ينصرهم في الحياة الدنيا قبل الآخرة، ينصرهم بنصر قضيتهم التي ضحوا من أجلها وينصرهم بإعلاء كلمة الله سبحانه التي بذلوا كل شيء في سبيلها.

ينصرهم كذلك في الآخرة بجنات عرضها السماوات والأرض ورضوان من الله أكبر، أما الظالمون والجبارون والمتكبرون فما عادت تقبل منهم أعذار وما ينتظرهم إلا اللعنات وأسوء دار يستقرون فيها دار العذاب.

دروس وعبر:

- إن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته هذا هو حال فرعون وملئه وقد عاثوا في الأرض وملئوا الدنيا بغياً وظلماً وعدواناً غرتهم الحياة الدنيا وانخدعوا بزخرفها وظنوا بأنهم قد تملكوا كل أسباب الحياة، ولما جاءتهم رسل الله كذبوهم وآذوهم ولم يصدقوا بهم وازدادوا بغياً وعتواً فحقت عليهم كلمة العذاب وصدق فيهم حكم الله سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢].

-المبادرة إلى التوبة وألا يغتر المرء بإمهال الله له وذلك لو أنه قد أجل التوبة إلى أن يحضر الموت فإنها لن تقبل كما لم يقبلها من فرعون وقد أوشك على الموت وأشرف على الغرق ولقد أكدت آيات القرآن على ذلك: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ

يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً *وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ١٨﴾ [النساء:١٧-١٨].

-﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس:٩٢]. ترى ما الحكمة من نجاة جثمان فرعون بعد الغرق فلم يذهب مع التيار أو تأكل الأسماك جثته لو أردنا أن نفتش عن الحكمة من وراء ذلك فإننا سنجد حكماً كثيرة منها:

أن تكون في جثمانه عبرة لكل من يأتي من بعده وهو ينظر إلى هذا الجثمان ويتأمل في ملامحه هل هذا هو الفرعون أهذا هو من ملأ الأرض بغياً وظلما وعدواناً هل هذا هو الذي ادعى لنفسه الألوهية والربوبية على الناس من أين ذهب ذلك كله لقد انتهى أمر ذلك كله وما تبقى منه إلا هذا الجثمان الذي لفظه اليم ورمى به بعيداً على الشاطئ. وكأن هذا اليم أبي أن تستقر هذه الجيفة في جوفه فألقى به منبوذاً على الشاطئ.

أضف إلى هذا أن إلقاء جثته على الشاطئ لطمة قاسية في وجوه أذنابه وأتباعه والمؤمنين والمصدقين بألوهيته، فلو لم يلق به الشاطئ لنسجت حول مصرعه الكثير من الأساطير ولوجدت ساعتها من يحاول خداع الجماهير الغافلة ويستثمر هلاك الطاغية لتحقيق أهدافه ولتصوير الأمر على أن ما حدث ليس بهلاك وإنما هو أمر من عمل ربهم فرعون وأنه قد صعد إلى السماوات مقره الدائم ومسكنه الملائم، ولكن لما ألقيت جثته على الشاطئ أخرست مثل هذه الألسنة وقطعت دابر ذلك كله.

وبعد:

فهذه نهاية الأحداث في قصة الصراع بين موسى وفرعون أو بين الداعية والطاغية كما عرضتها آيات القرآن حاولت أن أعرضها على قدر ما يتسع له الوقت وما تسمح به متطلبات هذا البحث،وما تبقى بعد هذا العرض الموجز إلا وقفة في خاتمة

لهذا البحث نخلص فيها إلى بعض النتائج والتوصيات التي يمكننا الوقوف عليها واستخراجها من هذا البحث.

* * *

الخاتمة:

لم يكن الهدف من دراسة قصة نبي الله موسى وفرعون أن تكون دراسة تاريخية تذكر الأحداث وتهتم بالتواريخ وتفاصيل الأحداث، وإنما كان هدفاً تربوياً بالدرجة الأولى لنتعرف على جوانب من السنن الإلهية والنواميس الربانية التي يسير عليها ملكوت الله في السماوات والأرض، ولنأخذ العبرة والعظة من مصارع الغابرين فلا نسلك مسلكهم، وإلا حقت علينا كلمة العذاب فسنن الله لا تتغير ولا تتبدل ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب:٦٢].

ولذلك في ختام هذا البحث سنحاول الوقوف على أهم الدروس والعبر المستفادة من هذا البحث:

– من هو فرعون[1] موسى؟ ما اسمه ؟ وفي أي زمن عاش هذا الطاغية ؟ إن القرآن لم يهتم أبداً بتحديد شخصه أو الزمن الذى عاش فيه فإن هذه ليست هي القضية التي من أجلها تذكر قصته في القرآن. وإنما نجد بأن اهتمام آيات القرآن كان ينصب بالدرجة الأولى حول شخصيته ومعالم تلك الشخصية والتي تجسدت بالدرجة الأولى بأنها كانت رمزاً للبغي والكبر والاستعلاء في الأرض وأن هذا النموذج من البشر كان يمثل شخصية فرعون موسى وأن هذا النموذج من الطغاة من الممكن أن يتكرر في أي زمن آخر فيكون أسلوب مواجهته ومقاومة بغيه بنفس المنهج والأسلوب الذي واجه به موسى فرعون.

– ظهر من خلال القصة خبث ومكر ودهاء فرعون في تسيير شئون البلاد وسياسته التي تعتمد على تمزيق الأمة وتفريقها شيعاً وأحزاباً حتى تكون جماعات

(١) كلمة فرعون ليست علماً على شخص بعينه وإنما هي لقب لحاكم مصر في عهد الفراعنة، فكما أن قيصر علم على حاكم الروم وكسرى علم على حاكم الفرس والنجاشي لقب الحاكم على الحبشة فكذلك فرعون في مصر القديمة، مثله في هذا العصر الرئيس والملك والسلطان والإمبراطور لحكام الدول ورؤساء الشعوب في عالمنا المعاصر.

متناحرة تبدد طاقاتها في هذا الصراع الداخلي الذي يضعفها جميعاً فلا تقدر قوة بعد ذلك على مخالفة أمره أو الوقوف في وجهه.

–هل كان فرعون حريصاً على صالح البلاد والعباد ؟ هل كان يعنيه فعلاً استقرار الأمر في بلاده واستتباب الأمن فيها ؟ هل كانت عنده الرغبة في أن يعم الرخاء أرجاء البلاد ؟ كل الشواهد والقرائن تؤكد عكس هذا تماماً:

فلقد جاءهم موسى بآيات الله البينات وأيقنوا بأنها من عند الله –سبحانه– ومع ذلك كفروا بها ظلماً وعلواً في الأرض، وجحدوا بها كبراً وبغياً. فلو أنه كان يعنيه فعلاً أمر بلاده لرغب في هذا الخير الذى جاءهم به نبي الله موسى.

وبدلاً من ذلك استنفذ طاقات الأمة وسخر مواردها في الصد عن دين الله –تعالى– والتكذيب بنبي الله موسى، فاستدعاء السحرة من طول البلاد وعرضها والأموال التي تنفق من أجل ذلك ألا يعتبر هذا أهداراً لموارد الأمة، حشده للجموع والوقوف فيهم خطيباً، وكل هذا على حساب أعمالهم وزراعاتهم أليست هذه طاقات مهدرة تبدد في غير موضعها.

النكبات التي حلت بالبلاد نتيجة سياسته الظالمة من القحط والجوع والطوفان والجراد والقمل والكوارث المتلاحقة أترى هل كان فرعون حريصاً فعلاً على صالح بلاده وهو على يقين بأن ما ينزل بهم من المصائب سببه سياسة هذا الغاشمة القائمة على البغي والظلم وسفك الدماء.

إعلان التعبئة العامة بين جنوده وحشدهم لملاحقة نبي الله موسى وبني إسرائيل ألا يعتبر هذا إهداراً لطاقات الأمة.

بل إنه بسياسة البغي هذه كان نقمة على نفسه وعلى وطنه بل على البشرية جمعاء لقد أهلك الحرث والنسل وروع الآمنين وسفك الدماء وكل ذلك مستقطع من رصيد أمته التي استنفذت ثرواتها وخيراتها من أجل تنفيذ مخططات وطموحات هذا الطاغية. ومن أجل الإبقاء على ملكه والحفاظ على عرشه هذه السياسة التي آلت في نهاية المطاف إلى الهلاك التام والتدمير الشامل لكل مقدرات هذه الأمة جزاءً وفاقاً لما

اكتسبته أيديهم.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧].

-إن مسؤولية ما حل بالبلاد من دمار وخراب لا يبوء بإثمها فرعون وحده ولكن يبوء بالإثم معه كل من كان عوناً له على هذا البغي والظلم والعدوان يبوء بإثمها معه ويشاركه في تحمل تبعتها في الدنيا والآخرة وعلى رأس هؤلاء:

الملأ حول فرعون وهم بطانة فرعون ووزراؤه وأعوانه ومستشاروه، لهم فيها حظ ونصيب فلقد كانوا بطانة سوء لا تنصح بخير ولا تنهى عن شر وإنما كانت هي المحرضة لفرعون على بغيه والمزينة له سوء صنيعه، فهم من حرضوا فرعون بعد هزيمته على يد السحرة هم من حرضوه على موسى وقومه وقالوا له:

﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـــي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

كذلك يشاركهم في وزرها ويبوء بإثمها معه الجنود، جنود فرعون ولذلك نجد أن الحق -سبحانه- وهو يقص لنا نبأ فرعون يربط بين هذا الثالوث (فرعون. الملأ. الجنود) فعند الحديث عن بغي فرعون لم يذكره وحده بل ضم إليه وزراءه وجنوده ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص:٨].

وحينما توعدهم المولى -سبحانه- بالعذاب لم يتوعد بها فرعون وحده وإنما توعدهم به جميعاً ﴿وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٦].

ولذلك لما أصابهم العذاب لم يصب فرعون وحده بل أخذهم جميعاً ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾.

وفي يوم القيامة يشتركون جميعاً في نفس المصير ففرعون قائدهم ورائدهم إلى النار﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ*وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ لَعْنَةً

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود:٩٩].

وحينما يصلونها يجتمعون فيها جميعاً السادة والعبيد، الضعفاء والمستكبرون، لا فرق بين من كان منهم قائداً أو كان عبداً ذليلاً يعيش تحت الأقدام، ولقد كشفت لنا آيات القرآن عن ذلك وأخبرتنا عن هذا:﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ* النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ*وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٥-٤٨].

كذلك يشاركهم في تحمل الوزر جموع الناس وكل أفراد شعبه وطوائفه الذين ارتضوا لأنفسهم حياة الذلة والمهانة والمسكنة، فلقد كانوا أسوء رعية لأفجر طاغية فهم من استكانوا للذل، وارتضوا لأنفسهم حياة الهوان فأغرت استكانتهم هذه فرعون فازداد في بغيه وظلمه وجبروته، بالإضافة إلى ذلك ما كانوا أتقياء أبرار قد ابتلوا بحاكم ظالم، وإنما كانوا فسقة فجرة بغاة أشرار فسلط الله الظالمين على الفاجرين الفاسقين فساموهم سوء العذاب، وفي نهاية المطاف انتقم الله منهم أجمعين، ولقد كشفت لنا آيات القرآن عن ذلك حيث يقول الحق سبحانه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ *فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ*فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف:٥٤-٥٦].

- (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله)[1]هذا أصدق مثال لحال سحرة فرعون بعد أن آمنوا بالله رب العالمين وصدقوا بما جاء به نبي الله موسى وتحدوا فرعون وهو في قمة بغيه وظلمه وقالوا كلمتهم المشهورة { اقض ما أنت قاض إنما تقض هذه الحياة الدنيا } وهانت عليهم أنفسهم في سبيل الله فقدموها رخيصة في سبيل ربهم وارتضوا لأنفسهم القتل والصلب وتقطيع الأيدي والأرجل بدلاً من المناصب الرفيعة والجوائز القيمة التي وعدهم بها فرعون

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك باب ذكر إسلام حمزة ولم يخرجاه ٢١٤/١١.

فلما كان هذا خيارهم خلد الله ذكرهم في الخالدين وتقبلهم في قافلة الشهداء.

تُرى لو أنهم اختاروا مرضاة فرعون على مرضاة ربهم –سبحانه– وآثروا ما يفنى على ما يبقى فكيف يكون حالهم اليوم لو أنهم فعلوا ذلك لكان مصيرهم اليوم كمصير آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

– بينت أحداث القصة العلاقة الوثيقة بين البغي والظلم والإفساد في الأرض والأخذ بالسنين ونقص الثمرات وانتشار الأمراض والأوبئة وتوالي الكوارث والمعاناة الشديدة التي يشعر بوطنتها ويعاني من آثارها الصالح والطالح على حد سواء وصدق الحق –سبحانه–: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٦٥-٦٦].

* * *

فهرس الموضوعات

***